

الدّرّة الوضيّة في توحيد رب البرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله

فهذا كتاب الدرة الوضية في توحيد رب البرية للشيخ المحدث السيد محمد الحوت البيرولي. وهو من علماء بيروت المشهورين بل شيخ علماها. ويليها ترجمته رحمه الله .

المتن:

قال الشيخ محمد الحوت

الحمد لله المنفرد بالإيجاد والإعدام، المتوحد بالتأثير والإبداع وخلق الأعراض والأجسام، المنزه عن الحلول والاتحاد بشيء غيره من جميع الأجرام، القاهر فوق عباده، المنعم على أهل وداده المتفضل بارشاده فلا وجوب عليه ولا إلزام، الذي أبدع بلا مثال واتصف بكل كمال، يليق به، وفتر الأرزاق والآجال، ودبّ الليل والآيام، المحيط علمًا بالكليات والجزئيات، المتصرف بالعلويات والسفليات، المهيمن على جميع الجهات، فلا حصر له تعالى بخاص ولا عام. الذي تنزعه عن الكيف والكم وعن الفرح والحزن والغم وعن الألم والذوق والشم، وتردى بالكرياء والعظمة على الدوام، المتعالي عن الألين، المتحجب عن رؤية العين، المحسن بكشف الغطاء يوم رفع الرين (١) ليراه المحبون للإعزاز والإكرام .

فسبحان من تعزز عن الإدراك وتعاظم عن الإشراك وتحجب عن الرسل والأملاك، فاستوى في الحجب عن حقيقته جميع الأنام .

أحمد من قدر الأمور في القدم وأخرج الكائنات من العدم، وقضى وامر وحكم، واتصف بالقرفة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، وتعالى عن المكافأة والمماثلة، وعن المشابهة والمشاكلة وعن المضاهاة والمعادلة، ليس كمثله شيء فلا تتخيله الأوهام .

وأصلى وأسلم على رسوله الأعظم ونبيه الأكرم وخليله الأفخم الذي رقاه لأعلى مقام سيدنا محمد المصطفى وعاله وصحبه أولى الوفا وعترته الكرام الشرف، المحفوظين من الإصرار على الآثم، متعنا الله باتباعه وجعلنا من أتباعه وأحياناً على سنته وأماتنا على ملته وجعلنا من حزبه المفلحين ومن أصحاب اليمين، يوم تتميز الرسل عن غيرهم بالمنابر والأعلام، صلاة يفوق نشرها ويفوح عطرها ويذوم براها ويستمد منها بركات ذي الجلال والإكرام .

وبعد:

فهذه درة نفيسة في علم التوحيد لا على طريقة الجدل ولا مدخل فيها للخلل وهي لنفع المبتدئ إن شاء الله تعالى .

إن علم هداك الله وبصرك في عالائمه أن هذا العالم عالمة على خالقه وأن كل أثر يرشد إلى مؤثره، قال تعالى :

(وفي الأرض عِيَاتٌ للموقين وفي أَنفُسِكُمْ) وقال تعالى: (أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) وقال تعالى: (وَلَنْ سَأَلُوكُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لِمَحِيَّ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وقال تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ قطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ) الآية وقال تعالى: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرَوْنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) وقال تعالى: (مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعْثَتُمْ إِلَّا كَنْفُسًا وَاحِدَةً) وقال تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ إِبْلٍ كَيْفَ خَلَقْتَهُ) الآية وقال تعالى: (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجَبَلِ بَيْوتًا) الآية وقال تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمِتْ فِي مَنَامِهَا) الآية وقال تعالى: (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَبِيرُ) ومعناه ألا يعلم الخالق ما يخلق أو ألا يعلم هو من خلقه .

وقال تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كُمْ لَا يَخْلُقُ أَفْلَىٰ تَذَكَّرُونَ) وقال تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقدِيرًا) وقال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) وقال تعالى: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءُ اللَّهُ) وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرَبَ مِثْلًا فَاسْتَعِمُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَا يَجْتَمِعُوا لَهُ) الآية وقال تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا عَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) وقال تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ عَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَبَتَغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) وقال تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعْلًا بِعِصْمِهِمْ عَلَى بَعْضٍ) الآية وقال تعالى: (وَاسْتَأْنِلُ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولَنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ عَالِهَةً يَعْدُونَ) وقال تعالى: (إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَاتِيُ الرَّحْمَنُ عَبْدًا) وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) أي هو معبود فيهما .

وقال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتَمْ إِنْ أَصْبَحَ مَا وَرَكُمْ غُورًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولاً وَلَنْ زَالتَا إِنْ أَمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ) وقال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتَمْ إِنْ جَعَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْلَّيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضَيَّاءٍ أَفْلَىٰ تَسْمَعُونَ) الآيات وقال تعالى: (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وقال تعالى حكاية عن إبراهيم: (الذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِنِي) الآية وقال حكاية عن موسى: (كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيِّدِهِنِي) وقال تعالى حكاية عن عيسى: (إِنْ تَعْذِبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ) الآية وقال حكاية عن عادم وحواء: (فَلَا رَبَّنَا ظَلَمَنَا أَنْفَسَنَا) الآية وقال حكاية عن يونس: (فَنَادَىٰ فِي الظُّلُماتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) الآية وقال حكاية عن يعقوب: (إِنَّمَا أَشْكَوْنَا بَشِّيَ وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ) وقال حكاية عن أليوب: (أَنِّي مَسْنَى الصُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وقال حكاية عن شعيب: (وَمَا يَوْفَيْتِي إِلَّا بِاللَّهِ) وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أجمعين: (قُلْ لَنْ يَصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ) .

ولما تعلل أهل مكة بالخوف لو عامنوا ردا عليهم بما يدل على سعة علمه وبديع كلامه وعظيم قدرته قال تعالى: (وَقَالُوا إِنَّ نَّبَّاعَ الْهَدِي مَعَكُمْ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكَنَ لَهُمْ حِرْمَانًا عَامِنَا يُجْبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) وقال تعالى: (جَعَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْهَدِي وَالْقَلَادُذُ الَّذِي لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وقال تعالى: (وَالسَّمَاءُ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمَوْسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشَنَا هَا فَنَعَّمَ الْمَاهِدُونَ وَمَنْ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعُكْمَ تَذَكَّرُونَ) وقال تعالى: (قُلْ أَفَرَأَيْتَمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضْرٍ هُلْ هُنْ كَاشَفَاتُ ضَرِهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هُلْ هُنْ مَمْسَكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسِبَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُونَ) وقال تعالى: (وَمَا بَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) وقال تعالى: (وَمَا قَرَرُوا اللَّهُ حَقُّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتِهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَاتٍ بِيَمِينِهِ سَبَحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَشْرِكُونَ) .

إذا تأملت ما في هذه الآيات البينات من الأسرار ونظرت ما فيها من سوابع الأنوار وما تضمنته من الدلالة على مالك الملك والملكون أعنان ذلك عن النظر بغير كتابه فإن من لم يكن هداه من قبله تعالى لا ينفعه براهين عقله، قال تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) .

فعليك أخي بكتاب الله تعالى فإنه مشحون بالتَّوْحِيدِ وهو الدليل القاطع .

واعلم أن العقل لا يستقل بنفسه في الدلالة على الصانع المدبر وإن اتسع فهمه وتعاظم علمه بل لا بد معه من معونة الله تعالى مع مقارنة اتباع الكتب المنزلة وإلا ضاع سعيه وقد ركب متن عمباء وخط خط عشواء وهو في المهاوي

المهلكة وهو لا يشعر، فكتاب الله تعالى هو حبل الله المتن من تمسك به أوصله إليه ودلله عليه بواسطة الأنطاف الإلهية فإنه تعالى جعله طريق الهدى والسبيل المنجي من الردى (2) معنا الله بتابعه .

واعلم أنه إذا ورد نصان ظاهرهما تناقض فلا بد من جمع بينهما لتعلمه بهما ولا تفرق بين عالياته إلا إذا ورد نص ينسخ المتأخر للتقدم فيكون العمل بالأخير، والننسخ (3) لا يكون في أمر يتعلق بالاعتقاد بل هو خاص بعلم الفروع كصلة وصوم وحج ونحوها وكذا لا يكون النسخ في الخبر إذا كان المقصود منه الإخبار، وأما إذا كان خبراً يراد به أمر أو نهي فيدخله نسخ لأن المراد به الحكم دون الخبر. أما الخبر المضط فلا يتعلق به نسخ لأنه لو نسخ للزم كذب في خبره تعالى وهو محال فالنسخ يتعلق بالأحكام فقط فافهم ذلك .

فبناء على ما تقرر من وجوب الجمع بين النصوص فإذا سمعت قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) وقوله تعالى (يُخافون ربهم من فوقهم) مع قوله تعالى (فَإِنِّي فَرِيقٌ أَجِيبُ دُعَاءَ الْمُدْعَىْ) ومع قوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ومع قوله تعالى (وَهُوَ مَعْكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) ومع قوله تعالى (إِذْ يَقُولُ لِصَاحْبِهِ لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ومع قوله تعالى (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) الآية .

فإن كنتَ واسعَ القلب فسيح الصدر عظيم الذوق والإدراك ردت عِلْمَ جمِيعِ ذلِكَ لَهُ تَعَالَى وَنَزَّهَتْهُ عَنِ الْمَعْنَى الْحَسِينِ المفهوم من ظاهر الرأي كما كان عليه قرن الصحابة ومن تبعهم بإحسان، وهذا المذهب الأسلم والطريق الأقوم؛ وإن كنتَ لستَ من فرسان هذا الميدان فارجع إلى التأویل كما عليه أئمة معتبرون وهم من جاء بعد القرون الثلاثة تقريباً لفهم القاصر وتطميناً لقلبه دفعاً للخواطر، وقد أولَ الْخَلْفَ الْاِسْتِوَاءَ بِالْقَهْرِ وَالْاِسْتِيَالَةِ عَلَىِ الْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ مِنَ الْخَلْقِ كُلَّهُمْ، فَهُوَ مَنْزَهٌ عَنِ الْاِسْتِقْرَارِ وَالْجُلُوسِ وَنَحْوِهِمْ (4) .

قال الشاعر :

قد استوى بشه على العراق ... من غير سيف ولا لم مهراق

فأراد أنه استولى عليه دون استقرار. ولما فهمت اليهود من مثل هذه الآية في التوراة أن المراد الاستقرار الحسي قالوا إنه تعالى تعب من خلق السموات والأرض في ستة أيام فلما فرغ استلقى يوم السبت على العرش واتخذوه عيدها وراحة، وهذا من شوئ فهمهم كما فهم مثل فهمهم جماعة من الحنابلة المتأخرة فوقعوا في ورطة التجسيم (5) وحملهم على ذلك أن سيدنا الإمام أحمد يمنع التأویل (6)، فيا لينتهم حيث قدواه في منع التأویل كانوا قدواه في وجوب التزييه لكنهم تبعوه في بعض وخالفوه في بعض. قال الشاعر :

" حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء " معنا الله بتابعه العزيز وحمانا مما يوقع في الهوى .

والتأویل مذهب المعتزلة، ولا يلزم من كونه مذهب المعتزلة أن يكون ممنوعاً فإنه جرى عليه كثير من أهل السنة من المذاهب الأربع مع أن الأئمة كلهم من السلف، لا من الْخَلْفِ .

ومذهب السلف أسلم ومذهب الْخَلْفَ أَحْكَمْ. وقد سئل سيدنا الإمام مالك رضي الله عنه عن الْاِسْتِوَاءِ فأجاب بقوله: "الْاِسْتِوَاءِ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكِيفُ (7) غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالْاِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالْسُّؤَالُ عَنْهُ بَدْعَةٌ وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا". (8) وسئل سيدنا الإمام الشافعي رضي الله عنه فقال: "عَامَنْتَ بِاللَّهِ وَاتَّهَمْتَ نَفْسِي" وسئل سيدنا الإمام أحمد رضي الله عنه فقال: "الْاِسْتِوَاءِ كَمَا يَقُولُ لَا كَمَا يَخْطُرُ". فكل منهم أجاب بالتسليم، ومن أين لنا قلوب مثل هذه القلوب المملوءة بالأنوار ويؤول القرب والمعية بقرب الرحمة والتصرف كل شيء بحسبه .

وقد أُولِتِ الْيَدُ (9) بالقدرة وقد جاء في كلام العرب اليد بمعنى النعمة وبمعنى القوة، وأول الوجه بالذات (10) أو بالوجود، والجانب بمعنى الحق، والفوقيـة (11) بمعنى التعالي في العظمـة، والعين بالحفظ، والمعية بمعنى معية العلم

(12) أو معيه الحف، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. فهذه الآية قاطعة في منع المشابهة لشيء من الأشياء لأن الشيء واقع في سياق النفي وهو نكرة تعم فلا يبقى شيء فليس له شبيه أصلاً.

ثم إنهم اختلفوا في هذا التركيب من حيث العربية فقيل أن الكاف مزيدة لدخولها على لفظ "مثل" والكاف بمعنى مثل، وقيل الكاف أصلية وـ"مثل" مقدم أي مزيد، وقيل "المثل" بمعنى الصفة ولا زيادة، والممعن: ليس كصفته شيء على حد قوله تعالى (وله المثل الأعلى) فسر بالصفة العليا. وأما قول من قال ليس مثلاً مثل شيء وهو أبلغ في نفي المثل فليس بجيد إذ ذلك يثبت المثل والمقصد نفيه وحينئذ يجب الجمع بين هذه الآية وبين النصوص التي في معناها حدوث وتغير كالغضب والعجب والمحبة والرحمة والضحك (13) فيؤكّل كل لفظ من هذه الألفاظ بعاقبته وما له فعاقبة الغضب الانتقام وعاقبة العجب الرضى وعاقبة المحبة الرضى والإثابة وعاقبة الرحمة الإحسان وعاقبة الضحك الرضى .

سئل ابن عباس رضي الله عنهم عن آيات من كتاب الله تعالى ظاهرها شبه التعارض كقوله تعالى (فوريك لنسنانهم أجمعين عما كانوا يعملون) مع قوله (يومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان) الآية وعن قوله تعالى (ونحشرهم يوم القيمة على وجوههم عبياً وبكماً وصمماً) وكقوله تعالى (هذا يوم لا ينطقون) الآية مع قوله تعالى (وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون) ومع قوله تعالى (وإذ يتحاجون في النار) الآية وقوله تعالى (اليم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم) وما أشبه ذلك من الآيات فقال للسائل هون عليك فإن القيمة موافق شتى ومعناه أنهم بحسب المواقف يكون الجمع بين الآيات في موقف يسألون ويتكلمون، وفي موقف آخر يُمنعون من ذلك، وحينئذ فلا تناقض في خبره تعالى إذ الجمع واجب .

فإن قيل: كيف جوز الخلف التأويل مع قوله تعالى (فاما الذين في قلوبهم زيف فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله) مع أن السلف كانوا يتعمدون الوقف على لفظ الجلالة؟ فالجواب عنه: المذموم تتبع المتشابه لقصد وقوع الناس في الفتنة والريب والشك بخلاف من أول المتشابه عند الحاجة للتأنويل لإصلاح الحال ودفع الشبه عن لا يقدر على التسلیم فليس ذلك لطلب الفتنة بل لدفعها عن الناس، وقد قال تعالى (والله يعلم المفسد من الصلح) وفي السنة: "إنما الأعمال بالنيات" .

والجواب عن وقوف السلف على لفظ الجلالة إنما كان بحسب علمهم وقوه إيمانهم فلا يرغيون التأويل ولا حاجة لهم به، وقد وقف من بعدهم على قوله تعالى (والراسخون في العلم) ثم يبتعدون بقوله تعالى (يقولون عامنا به كل من عند ربنا) أي كل من المتشابه (14) والمحكم (15) من عند الله يجب به الإيمان. وأيضاً فمن جوز تأويل المتشابه لا يجزم بأن هذا هو مراد الله تعالى وإنما هو تقرير لفهم مع جواز غيره، وهذا في كل تأويل لأنه قد يكون للآية جملة من المعاني لأن الحق تعالى محيط بما يتضمنه كل كلام وما يصلح له، انتهى .

إذا علم ما تقرر فاعلم أنه يجب على كل مكلف معرفته تعالى لقوله تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فالمعرفة فرض عين على كل مكلف وهو البالغ العاقل، الذي بلغته دعوة الإسلام، والمعرفة هي جزم القلب الموافق للحق عن دليل فلا يكفي الظن في أمر التوحيد لقوله تعالى (وان الظن لا يغني من الحق شيئاً) فلا بد من عقد القلب، ولذلك سمي اعتقاداً وعقداً كأنه ربط قلبه بذلك الأمر وعقده عليه؛ والعرب تسمى الأمر المحتم عقداً ومنه قوله تعالى (ولا تعزمو عقدة النكاح). قال الشاعر :

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم ... شدوا العجاج وشدوا فوقه الكربا

وهذا العقد لا بد أن يتقدمه نظر في المصنوعات ليستدل على خالقها .

اختلفوا في أول واجب فقيل: معرفة الله، وقيل: النظر الموصى للمعرفة .

وأختلفوا في إيمان المقلد، والمشهور صحة إيمانه. وكذا المشهور أن إيمان العوام ليس تقليداً بل عن نظر واستدلال لكنهم لا يقدرون على كيفية الدليل ودليلهم مجملٌ من دون تفصيل، وذلك فإن الصحابة كانوا لا يسئلون عن الدليل عند إسلامهم لأن الإيمان والإسلام يتوران بالمارسة على الأسباب المنتجة لهما .

والإيمان تصديق الرسول بكل ما جاء به من عند الله تعالى بأن ينسب النبي إلى الصدق في إخباره عن الله تعالى ويمثل ذلك باطناً .

والإسلام هو الاستسلام في الظاهر بأخذ أحكام الشرع بالرضا والقبول وينقاد بظاهره لأحكام الشرع كلها، قال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) فشرط لصحة الإيمان الانقياد في الظاهر والباطن والتسليم ودفع الحرج عن النفس .

ثم الإسلام والإيمان يتغایران لفظاً وهما متلازمان في نفس الأمر (16) لأنه لا يوجد مسلم حقيقة إلا وهو مسلم وعكسه بخلاف المنافق فإنه مؤمن في الدنيا فقط لأجل إجراء حكم الإسلام عليه وأما في الآخرة فهو أشد ضرراً من أظهر الكفر لأن ضرر النفاق في الدنيا على أهل الإسلام أشد من ضرر الكافر لأن نقاتل الكافر دون المنافق حيث لا نعلم حقيقة أمره، والكافر حاله ظاهر .

ثم اختلفوا في أن الإيمان يزيد وينقص والمشهور أنه يزيد وينقص بظهور الأدلة والأعمال الصالحة فيشرق في القلب كالشمس بدون حجاب ومع وجود حجاب .

وأختلفوا في قول العبد أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، فمن مانع من ذلك تكون إن تفيد الشك، ومن مجيز لأن الأشياء لا تقع إلا بالمشينة أو نظراً لما يقول له الأمر، واتفقوا على جواز ذلك بقصد التبرك باسمه تعالى، وهذه مباحث فيها كلام كثير .

القاعدة الأولى: الوجود

من قواعد التوحيد اعتقاد وجود الحق تعالى. وهي صفة نفسية لا يعقل الذات إلا بها، ووجوده تعالى بذاته لا من مادة وعنصر وليس موقوفاً على أمر آخر .

والوجود نوعان: وجود قديم وهو واجبٌ وهو وجود الحق تعالى. قال تعالى: (ذلك يأن الله هو الحق) أي الثابت الوجود المحقق (17). والوجود الثاني وجود جائز ممكن وهو وجود من عداه، وذلك كل الأكون .

ثم وقع في كلام المتأخرین من المتصوفین ما لم يتكلّم به أحد من السلف وهو قولهم بوحدة الوجود وأن الوجود واحد وهو وجود الحق تعالى؛ وهذه العبارة كفر فلذا وجوب الإعراض عن القول بها ولا يُتمسّك بمِنْ قالها لأنّا مقتدون به صلى الله عليه وسلم وب أصحابه، ولا يقال فلان معتبر وقد تكلّم بها، لأنّا نقول لم نؤمر بالاقتداء به وإنما أمرنا بالاقتداء بالسلف بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالرجوع لما عليه السلف سلامه والخوض في قول غيرهم سبب للندامة. ثم هذا القول المذكور المعبر عنه بوحدة الوجود (18) أريد به اتحاد الحق بالخلق وأنه لا شيء سواه ويقولون: الكل هو وأنا من أهوى أنا وفي كل شيء له عاية تدل على أنه عينه. فهذا القول كفر وقد غلب أهله النصارى فإنهم خصوا الحلول بعيسي وهؤلاء عمموا في كل شيء دفع الله شرّهم عن الأمة وعمهم باللطف والرحمة .

إذا فهمت ما تقرّر لك من ذلك فاعلم أنه تعالى منزه عن الحلول والاتحاد بشيء من الكون وأن الخالق تعالى مخالف للخليقة. وأول من أظهر هذا المذهب أبو سعيد القرمطي من أهل البحرين، و فعل أبو سعيد هذا وأخوه أبو طاهر بأهل الإيمان من القتل والاغتيال على بلاد الإسلام ما لم يفعله كافر من أهل الحرب حتى بلغ أن أبي طاهر قتل الحاجاج بمنى يوم النحر وجعلهم مكان الأضحية وقد عجل الله له العقوبة وأنزل الله تعالى عليه وعلى بعض أصحابه بلاء كالطاعون

فهلك عن قرب هو وجملة من جنده بذلك الداء، ثم اقتلعوا الحجر الأسود وأخذوه لبلادهم فينس الاعتقاد وبنس المذهب
وبقي هذا الاعتقاد وانتشر مع كثير من الناس

القاعدة الثانية: القدم (19)

يجب له تعالى **القدم** فهو قديم أزلٍ، والقدم عبارة عن عدم الأولية (20) أو عن عدم سبق الحدوث، وذلك أنه لا مبدأ لوجوده ولا يدخل في وجوده زمان ولا مكان فإنه السابق على الزمان والمكان. وليس القدم بمعنى طول الأزمنة كما في قوله تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) بلي معناه كما تقرر؛ وحينئذ يجب اعتقاد حدوث العالم بأسره ولا عبرة بقول الفلسفية القائلين بقدم العناصر وهي الماء والتربا والرياح والنار، لأنها وإن كانت أصلًا للحوادث (21) لكنها متغيرة وكل متغير حادث، فالقديم حقيقة هو الخالق الموجد لكل شيء. قال تعالى: (وخلق كل شيء) والعناصر من جملة أفراد الشيء فهي حادثة. وقد علم مما تقرر انقسام الوجود إلى حادث وقديم، فالقدم صفة الخالق، والحدث صفة الخلق.

واعلم أنه يقع في تعبير من يتسامه في العبارة أنه صلى الله عليه وسلم نور (22) من القدم أو من الأزل، أو كان نوراً من القدم من العماء ونحو هذه العبارات، فهذا التعبير باطل مردود على قائله فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم من جملة خلق الله وهو سيدهم، وما يرويه أهل القصص من أن موسى سأله ربكم من ذمتك في الألوهية الخ فهذا كذب محض لأن رسل الله تعالى لا يجهلون ما يجب له تعالى. وكذا قولهم أبرز الحقيقة المحمدية من محض النور، فالله منزه عن صفات الحوادث فلا تأخذ بظواهر مثل تلك الكلمات التي تكتب من دون تأمل فمقام الحق لا يمثل فافهم .

القاعدة الثالثة: البقاء

يجب له تعالى صفة البقاء وهي عبارة عن عدم انتهاء الوجود أو عبارة عن عدم اختتام الوجود، وليس ذلك بمحدود. وكل من ثبت قدمه يستحيل عدمه لاستحالة التغير على القديم، وهذا بقاء واجب له تعالى . وأما ما تقرر في الشريعة من دوام الجنة والنار والعرش فهذا البقاء ليس بالذات بل لأن الله شاء لهم البقاء فهم باعتبار ذاتهم يجوز عليهم الفداء، وجوده تعالى لم يتغير فبقاءه واجب لذاته لا لغيره . وبقاونا إنما كان لوعده الله ولا يخلف الميعاد .

ثم نعيم الجنة باق بالإجماع لا ينقطع، وأما عذاب أهل النار المؤمنين منهم فهذا ينقطع بالإجماع ويدخلون الجنة برحمه الله تعالى، وأما عذاب أهل الكفر فقيل ينقطع وهو قول شاذ لا يعول عليه لقوله تعالى (ونادوا يا مالك ليقضى علينا ربك قال إنكم ماكثون) وقوله تعالى (كلما خبت زدناهم سعيراً) (كلما نضجت جلودهم بذنابهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) وقوله تعالى (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) .

واستدلال هؤلاء بقوله تعالى (لابثين فيها أحقاباً) بأن الحقب ثمانون سنة ليس في محله لأنه يجب رجوع معناه إلى الآيات الدالة على التأييد جمعاً بين كلمات الله تعالى . وكذا لا دلالة في حديث " يأتي على جهنم زمان ينبع في قعرها الجرجير" لأنه ضعيف .

اللهم عاملنا بعفوك ولطفك وأجرنا من خزيك وعقابك .

القاعدة الرابعة: المخالفة للحوادث

مخالفته تعالى للحوادث وهي عبارة عن نفي المماثلة فليس بنار ولا نور ولا روح ولا ريح ولا جسم (23) ولا عرَض ولا يتصف بمكان (24) ولا زمان ولا هيئة ولا حركة ولا سكون (25) ولا قيام ولا قعود ولا جهة ولا بعلو ولا بسفل ولا يكونه فوق العالم أو تحته (26)، ولا يقال كيف هو ولا أين هو ولا ما هو ولا لماذا فعل كذا أو حكم بكتذا . والعمدة في هذه العقيدة قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) لا يُسئلُ عما يفعل وهو يُسئلون .

ومما يدلك عقلاً على عدم إدراكه وعدم الإحاطة بكتبه أنك إذا تأملت في تدبير روحك لجسمك وأنت هي وهي أنت عجزت عن إدراك حقيقتها وعن كيفية تصرفها في جسمك وأين قرارها منك حال نومك ومن أين تأتيك عند يقظتك وكيف يدخلك الألم والفرح والحزن والغضب والحلم واللطف والرحمة وما شاكل ذلك من العوارض وأنت جازم بوجودها، علمت عظمة الخالق لها والمدبر. ثم إذا نظرت إلى عدد أصحاب الأرواح وتصرفه فيهم كتصرفه فيك وتأملت في سعة عقلك وإدراكك للأشياء وكيف ينمو جسمك ولا تشعر بنموه ولا تدرى من أين يأتيك الطول والعرض في أعضاء جسمك وكذلك كل جسم نام وتأملت في حواسك وكيف اختص السمع بالأذن والبصر بالعين والنطق بالسان والذوق بالحلق والشم بالأنف والإدراك بالقلب مع أن كل جسمك فيه لحم وعزم وعصب، وتأملت الرياح وعدم رؤيتها مع تحقق وجودها واختلاف طباعها وتأملت الماء وإيجاده على الدوام وأين قراره وخزانته والمطر والسحب والبرق والرعد والنبات وكيفية رزق الخلق وتغذيتهم وإخراج ما يضرهم من فضلاته وغير ذلك مما لا يحيط به عقل، علمت وأيقنت بعجزك عن معرفة حقيقته تعالى لأن العجز عن إدراك المصنوع مع مشاهدته أو مشاهدة أثره أعظم دليل على العجز عن إدراكك من صنع ذلك وأنه عظيم فوق جميع ذلك. فسبحان من أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً. ربنا عاتنا من لدنك رحمة وهي لنا من أمرنا رشداً.

واعلم أن بعض أهل الرفض قد مثلوه تعالى بخلقه، وذلك أنه صر أن جبريل كان يتمثل بصفة دحية الكلبي وبصفة أعرابي يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي، وتمثل لمريم بشرأ سوياً كما نطق به الكتاب العزيز، ومع هذه الحالة هو جبريل يعنيه لم يتغير عن الملائكة، قالوا إذا قر المخلوق على أن يتطور ويتألون بأشكال مختلفة فالخالق القادر على ذلك أقدر بأن يظهر في صورة مخصوصة أو في صورة الكون، فجسّموا وشبهوا وجوزوا الطحول ومرقوا من الدين كالسهم من الرمية وقالوا بألوهية علي وجعفر واتسع الخرق معهم إلى الفاطميين فاعتقدوا فيهم الريوبية ولا سيما الحاكم بأمر الله منهم، فإنه توغل في هذا الشأن. وهذا جهل عظيم بقياس من ليس له مثل على من له مثل، فإن جبريل جسم نوراني حادث يقبل التغير والتنقل، والخلق تعالى ليس له عنصر ولا مادة ولا دل دليل على هذه الدعوى الباطلة سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً. وأول من ابتدع لهم مذهب الرفض عبد الله بن السباء كان يهودياً أسلم نفاقاً قصداً لإدخال الشبه على أهل الإسلام وقد نال منهم مثلاً عظيماً وهو أول من أظهر للناس حب علي وتفضيله على الصديق، ولما علم علي بحاله نفاه من الكوفة ثم ما زال يزين للناس فضل علي وحبه حتى أوقعه في بعض الأصحاب ثم في ربوبية أهل البيت. وكذا حصل نظيره لبعض أهل الاعتزال كالنظام والجاحظ فإنهما كانا من غلاة المعتزلة وهم من المحسنين، وقد حرق الله تعالى أصحابه هؤلاء المذاهب الباطلة وأبادهم، ومن بقي منهم كتب عليه الذلة. وإنما بينت لك هذا لتعلم المفسد من المصلح، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظنا بحفظه من كل سوء في الدنيا والآخرة .

القاعدة الخامسة: القيام بالنفس

قيامه تعالى بنفسه ومعنى ذلك أنه تعالى غنيٌ عن موجِّدٍ يوجَّدُ وَيُخَصَّصُ، هو رب كل شيء وخلق كل شيء. فهو الغني بذاته عن كل شيء لأنه لو كان له موجَّد لاحتاج موجَّد لمن يوجده وهذا حتى يدور الأمر ويتسدل وكلاهما محل. قال تعالى: (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) الآية. فهو الغني عن كل شيء وإليه يفتقر كل شيء. ومن جملة استغاثاته أنه تعالى ليس صفة يقوم بغيره (27) كما أن البياض والحركة والسكن قائمات بالأجسام وليس هو بجسم يملا الفراغ ولا عرض يقوم بغيره كقيام الصفة بموصوفها، بل هو الغني عن كل شيء الذي لا يحتاج لشيء ولا يتكم بشيء، فهو قادر مختار لا يجب عليه لخلفه شيء، بل كل ما يقطعه من أفعاله بالعبد فهو بالاختيار. وما يلام العبد فهو من فضله عليه وما لا يلامه فهو من عده به. لا يسئل عما يفعل وهو يسئلون، لا معقب لحكمه ولا راد لما يقضيه في الخلق .

أحكامه في خلقه كلها مقرونة بالحكمة، منها ما يدركه العقل أو بعضهم ومنها ما لا يعلم سره إلا هو، فيكون أمراً تعبدياً كالطهارة بالماء دون غيره والوقوف بعرفة وأمثال ذلك .

وبالجملة فالعبد تحت قهره تعالى وهو القاهر فوق عباده. صفة العبد العجز والجهل والفقير والضعف، صفة الحق تضاد صفة العبد، فصحته تعالى الغنى والقدرة والعلم وغيرها من صفات الكمال. قال أبو سعيد الخراز (28) : "من

عرف نفسه عرف ربَّه" وليس هذا حديثاً ومعناه أنك إذا عرفت نفسك بالجهل عرفت ربَّك بالعلم، وهذا يقية الصفات.
وقول العارفين: "إذا أراد قربك منه سلبَ عنك وصفك وكساك من وصفه تكون أهلاً لخطابه".

ليس المراد منه أن صفة الحق تقوم بالبعد لأن هذا عين الح Howell الذي نطق به النصارى، وقد حكم الله بکفرهم؛ وإنما معناه أنه تعالى يطهُر العبد من الوصف الذميم كالغضب والبخل ويحمله باثار صفاتِه الطيبة كالحلم والعفو والكرم فافهم ذلك.

وقول السيدة عائشة في صفة خلقه: "كان خلقه صلى الله عليه وسلم القراءان يحل حلاله ويحرم حرامه" (29) أي كان متخلقاً بأوامر القرآن ونواهيه. وقول بعض العارفين أنها تحاشت أن تقول كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى فقالت ذلك، فهذا التعبير غير جميل وإن كان يقول بما تقدم لكن فيه إيهام لفهم مَنْ لم يفهم .

القاعدة السادسة : الوحدانية

وهي عبارة عن نفي التعدد في الذات والصفات والأفعال فتنفي هذه الصفة الکم المتعلق في الذات والصفات والمنفصل فيهما وفي الأفعال، وهي غير صفة الأحادية (30) فإن الأحادية تدل على تفرد الذات فقط ولا ينظر إليها إلى الصفات، وأما الوحدانية فتدل على تفرد الذات مع وصفها بما يليق. والکم عندهم هو التعدد والمقدار فينفي بالوحدةانية التركبُ والشريكُ وما کم متصل ومنفصل، وينفي تعدد الصفة واتصالُ غيره بصفته وما کم متصل ومنفصل. وينفي فعل غيره بمعنى أنه لا تأثير لشيء في شيء من الأكون. وفي هذه المسئلة قد اختلف الناس على مذاهب فمذهب الفلاسفة أن الأشياء تؤثر في بعضها بطبيعتها وقتها كالنار في الحطب والسكنين في الحبل وهذا كفر صريح .

ومذهب المعتزلة أنها تؤثر بقدرة وقوه أو جدها الله فيها ولو لا ذلك لم تؤثر وهو فاسد لأنه يلزم منه أن قدرة الله تعالى لا تنفذ في إيجاد شيء إلا بالسبب فيكون مقهوراً محصوراً وهو باطل، ويلزم منه تعدد المؤثر ولا يؤثر إلا الإله القادر- فتكون الآلهة متعددة، وعلى هذه العقيدة قالوا: العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية .

ونذلك باطل (31) لقوله تعالى (والله خلقكم وما تملون) (وخلق كل شيء فقدر تقديرًا) (32).

ومذهب البعض أن الأسباب مخلوقة بخلق الله تعالى وهو المؤثر وحده، لكن الرابط بينها وبين ما قارنها عقليًّا لازم لا ينفك أبداً بمعنى أنه متى وجدت النار مع حطب حصل الإحراء بقدر الله تعالى؛ وهؤلاء ينكرون معجزاتِ الرسل بلزム مذهبهم وخرق العادات، وهو جهل بما ثبت بالنصوص القطعية كاخمام النار على إبراهيم وخلق البحر لموسى وإحياء الموتى لعيسى. وإن أنكروا هذا كفروا لتكييف كتاب الله تعالى .

ومذهب أهل السنة متوسط بين هذه المذاهب (33) وهو أن الحق تعالى هو المؤثر ولا يحتاج لسبب، قوله خرق العادات فهو الفاعل المختار (34) ويوجد المسببات عند وجود الأسباب. فهو المتصرف في السبب والمسبب، وما يقع على أيدي العباد من الأفعال فهي مخلوقة له تعالى وليس للعبد فيها إيجاد ولا تأثير إلا الكسب (35) وهو الميل الاختياري كما قال تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فأثبتت للعبد كسباً لا خلقاً ورتب عليهم الحكم ثواباً وعقاباً. وإدراك سر الكسب وحقيقة أمر غامض ولذا ضرب به المثل فقيل: "أخفى من كسب الأشعري" (36).

والكسب وإن كان فهمه خفيًا إلا أنه تسمية ربانية فيجب الوقوف عندها وذلك من الأمور التعبدية التي لا تدرك. ولم يرد نص في تسميته فعل العباد خلقاً، فقول المعتزلة مردود لأنهم قد سموه برأيهم فيرد عليهم بعد أن سماه الله تعالى كسباً. كما يرد قول الجبرية بأن العبد لا كسب له أصلاً ولا اختيار له في فعل بل هو كريشة في الهواء تقلبها الرياح، وهو باطل (37) بعد أن خاطب الله الخلق بأفعالهم ومدح منها ما وافق حكمه وذم منها ما خالفه، ورتب الثواب والعقاب على فعل العبد دون الأقدار .

فظهر توسط مذهب الأشعري وغيره من أهل السنة. وكتاب الله حجة لهم قال تعالى (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) .

وكذا يرد قول القائلين بتصريف بعض الناس بطريق الباطن بعد قوله تعالى لأكمل خلقه (ليس لك من الأمر شيء) (إنك لا تهدي من أحببت) والعجب كل العجب كيف خصوا بالتصريف وقد نفى عن أكمل الرسل، وأعجب من هذا من نبذ كتاب الله وراء ظهره وتمسك بأقوال هؤلاء وهو يسمع قوله تعالى (كتاب الله عليكم) فإن الميل عن كتاب الله تعالى قبيح، لكنه من أهل العلم أبشع إذ هم النور الذي يستضاء به فإذا دخلوا في الظلم أظلم بهم الكون. فعلم مما تقرر أن التصرف لله وحده وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً ولا من أمر غيره بالأولى وقد قال تعالى لنبيه ليخبر قومه (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) الآية. فالتوحيد رد كل الأمر لله تعالى لكن لا بد من النظر للأسباب التي نصبها فأفهمنا. ولا يخفى عليك أن سيد الخلق أعرف بربه من كل أحد ومع ذلك حفر الخندق عام الأحزاب وظاهر بين درعين يوم أحد وكان يهيء الطعام لعياله ويتزود لأسفاره فافهم ذلك ولا تظن أن التوحيد الكامل في رفض الأسباب بل هو مع مبادرتها حسب إذن الشارع مع العلم بأنه هو نصبها لنا وأنه المتصرف فيها وفيها، هذا أكمل وأتم لأنه مقام الرسل الكرام .

ولا نظر لقول المخالفين (ان كل فرقة من تقدم ذكره تقول نحن على السنة والجماعة ولا تعلم المحقق من المبطل) لأننا نقول السنة والجماعة ليست مجرد اللفظ وإنما هي سلوك طريق الرسول صلى الله عليه وسلم والكتاب والسنة يعلمهما أهلهما فمن أخذ بهما بدون تأويل فاسد يخرجهما عن قانون العربية فهو من أهل السنة، ومن أول النصوص برأيه على خلاف ما قاله المفسرون فقد أخطأ طريق الحق .

واعلم أن هذه الصفات الخمسة يسمونها صفات السلب لأن كل صفة منها تدل على نفي نقيضها، والسلب هو النفي .

القاعدة السابعة: في صفات الذات

وهي القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام وهي سبعة وتسمى صفات المعاني لأنها تدل على أمور تترك في المخلوق. فقدرة زيد ظاهرة للناس وكذا علمه ومشيئته، ولما كانت ظاهرة في الحادث لا تتفك عنه سموها صفات الذات وصفات المعاني. وإضافتها بيانياً أي صفات هي صفات المعاني. وهذه الصفات السبع نفاهَا المعتزلة فراراً من تعدد القدماء وقالوا لو ثبتت لزم أن يكون الإله مركباً من ثمانية أشياء وقد كفر النصارى بالثالث فكيف بثمانية. وقالوا هو قادر بذاته ومريد بذاته وعالم بذاته وهي بذاته وسميع بذاته وبصير بذاته ومتكلم بذاته وليس له هذه الصفات .

وجوابه أن المحال إنما هو تعدد الذات، لا ذات واحد اتصف بصفات. ومن المعلوم عند كل أحد أنه لا يقال لزيد عالم إلا إذا اتصف بصفة العلم وهذا. وقد دلت النصوص على ثبوت قدرته وعلمه. وهذه الصفات الذاتية ليست عين الذات حتى يحصل تركيب، ولا غير الذات حتى يحصل تعدد القدماء. وذلك كالواحد من العشرة لا عينها والأحسن في تمثيله أن علم زيد لا عينه ولا غيره وكذا الباقي ففهم لأن التمثيل بوحدة من عشرة يوهم التركيب كما قال به النصارى أنه مركب من ثلاثة أقانيم - جمع أقوام بمعنى الصفة - وهي العلم والحياة والكلمة، وجعلوا عيسى هو الكلمة. قال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) أي واحد منها وهذا هو قولهم بالثالث لغنة الله عليهم . وهؤلاء فرقة منهم .

واعلم أن الصفة الذاتية هي التي لا تقع خبراً عن الاسم فلا يقال زيد عِلْمٌ ولا قدرة، والصفة المعتبر عنها بالحال من حيث اللفظ كالفادر والعالم فهي وصف للاسم ، تقول : زيد عالم .

وأول صفات الذات في العدد :

القدرة وهي صفة وجودية قديمة أزلية يوثر الله بها في الإيجاد والإعدام يخرج بها من العدم إلى الوجود ومن الوجود إلى العدم. ولا تتعلق إلا بالمكانات الجائزات وهي جميعخلق (38). فلا تتعلق بالواجب تعالى ولا بالمستحيل كالشريك لأنه يلزم على ذلك تحصيل الحاصل أو قلب الحقائق. فإيجاد واجب الوجود وإعدام واجب العدم تحصيل حاصل، وإعدام الواجب وإيجاد المستحيل يوجب قلب حقيقتهما لصيروتهما حينئذ من جملة الممكن، وكل ذلك مستحيل عقلاً. فبناءً على ما تقرر تعلم منع قول من لا يستحيي: (هل يقدر على خلق الولد) - بزعمهم هل يستطيع أن يجعل له ولداً - فمثلك هذا لا يقال (39) فإن القدرة لا تتعلق بمستحيل ولا بواجب. وأما قوله تعالى (لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذه من لدنا ان كنا فاعلين) فهي جملة شرطية و نتيجتها: لكننا لم نرْ فلا يقع ذلك لأنه محال .

وأما قوله تعالى (قل إن كان للرحمٍ ولد فأنَا أول العابدين) معناه كما قيل: لو فرض ذلك كنت أول من يؤمن به أو أول عالم بذلك لأنه أول الأمة علمًا وعملاً، لكن هذا العلم لم يكن فييس الله ولد سبحانه عما يقولون .

واعلم أن القدرة لها تعلق قديم بمعنى أنه في الأزل صالحة لكل ممكِن أن تتعلق به، وكل ما أراد الله إيجاده أو جده وكل ما أراد الله إعدامه أعدمه، فلا يخرج عن قدرته ممكِن ما، إذ لو خرج فرد من المكانات لكان مستغلياً عن الواحد القهار وذلك محال. فالممكِن يجوز عليه الوجود والعدم على حد سواء فترجح أحد الطرفين على الآخر لا بد له من فاعل مختار (والله خلقكم وما تعملون) .

واعلم أن حقيقة صفاته تعالى لا تدرك كما أن ذاته لا يدرك. وقول العامة: "أنظر لقدرة الله تعالى" فذلك إشارة لآثارها من الألوان كالسماء وما فيها والأرض وما عليها وما بينهما، وليس المراد حقيقة القدرة فافهم ذلك. وكذا يقال في مثل قول الجزولي: "وبما حمل كريسيك من قدرتك" أي من عاثرها. وقد أرشدنا سبحانه وتعالى إلى هذا بقوله تعالى (فانظر إلى عاثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) الآية .

واعلم أنه وقع في عباراتهم في مسئلة الحساب أنه يحاسب الخلق محاسبة واحدة في وقت واحد وتنسخ قدرته تعالى لحساب الخلق، وهذه العبارة غير جميلة لأن فيها إيهاماً أن قدرته تعالى زاد تأثيرها في وقت الحساب، والقصد بذلك أنه يُظهر للخلق سعة قدرته تعالى ويكشف لهم الغطاء عن قلوبهم فإن تصرفه تعالى في الكون واحد في الدنيا والآخرة وحال حياتهم وحال موتهم وقبل إيجادهم وبعده، إذ هو الحافظ لهم والممد لهم في كل حال والحافظ للثواب في الأصلاب وللتراب في القبور وللرزق والنحو وجميع التصاريف. فالكون المقدَّر على حاله يتقلب من قدر إلى قدر كما قال عمر رضي الله عنه عن له غنم وأمامه واديان: "إن هبط الخصب كان بقدر الله وإن هبط غيره كان بقدره" وقال: "نفر من قدر الله إلى قدر الله" فكيف ما تقلب العبد فهو في قدر فالأمر منه تعالى ورجوعه إليه .

الصفة الثانية من المعاني: الإرادة (40) وهي المشيئة (41) وهي صفة أزلية قديمة يختص بها تعالى الممكِن ببعض ما يجوز عليه. ويجوز على كل ممكِن الوجود والعدم والمقدار والألوان والهيبات والجهات والأزمنة والأمكنة. فكُون الممكِن مخصوصاً ببعض أفراد هذه الأشياء دون بعض من عاثر مشيئته تعالى، لأنه فاعل مختار. قال تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) (وما تشاون إلا أن يشاء الله) (ولو شئنا لرفعناه بها) فكل شيء ينشأ عن إرادته من دون تغيير ولا تبدل، والإرادة مرتبة عقلاً على العلم (42) .

واعلم أن الإرادة غير الأمر (43) وغير الرضى فليس بينهما تلازم لأنه يأمر ويريد كإيمان الرسل، ولا يريد ولا يأمر كالكفر منهم، ويريد ولا يأمر كالمعاصي، ويأمر ولا يزيد كالكفر من حتم كفره: أمره بالإيمان ولم يرده منه فلم يقع. ولا يقال كيف طلب منه الإيمان ولم يرده وحتم عليه الكفر؟ (44) لأنه لا يسئل عما يفعل وهو يسألون وقد سبق وعده للأمان جهنم من الجنة والناس أجمعين) .

وقول المعتزلة بالالتزام بين الأمر والإرادة والرضى مستدلين بقوله تعالى (ولا يرضى لعباده الكفر) وقوله تعالى (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) فهو في غير محله لأنه لا يرضى لهم الكفر مذهبًا وشرعًا ولو لا أنه أراد لهم الكفر والمعاصي ما وقع ذلك منهم. والأمر يتعلق ب فعل المكلف، والإرادة ترجع له تعالى لا دخل للمكلف في إرادة الله تعالى .

واعلم أنه تعالى يفعل بالاختيار لا باكراه ولا بالطبع .

الصفة الثالثة من المعاني العلم وهو صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تتعلق بالواجب والجائز والمستحيل لأن العلم صفة كشفٍ وتجلٍ لا صفة تأثير، فيعلم ما هو عليه وما يجب له وما يستحيل ويعلم الكون بما فيه تفصيلاً ويعلم استحالة الشريك والولد. كيف وقد كرر في كتابه العزيز أدلة توحيده حتى قال (أفمن يخلق كمن لا يخلق) (ألا يعلم من خلق) (وأحاط بما لديهم وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً) (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) الآية .

وربما عَظَمَ في عينك هذه الإحاطة فارجع لقوله تعالى (ما خلُقْتُمْ لَا بَعْتُمْ إِلَّا كُنْفُسَ وَاحِدَةً) ولقوله تعالى (وَمَا قَدِرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قِبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيمِينِهِ) الآية. فأعلمنا عن عظمته بتقليل الكون حيث شبهه بقبضته يتصرف فيها قابضها من دون مشقة ولا عناء، فسبحان اللطيف الخبير فإن أسرار الحق لا يدركها عقل فاطرح نفسك في بحر فضله واستمد به دون غيره واجتهد في مرضاته فإنه يعلمك ما لم تعلمه. قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) .

الصفة الرابعة من المعاني: الحياة ولا تتعلق بشيء، فهو الحي الدائم القيوم الباقٍ. والحياة في المخلوق مدركة معلومة، وحياة الخالق صفة الله يعلمها (45) وهي عبارة عن الدوام. ومن اتصف بالحياة اتصف بسمع وبصر وكلام (46). وهذه الصفات الثلاثة تمام السبعة، فسمعه يتعلق بكل موجود، وكذا بصره .

وليس سمعه بالآلة وجارحة كما أن بصره كذلك، فهو منزهٌ عن سمات الخلق. وهذه الصفات زائدة على العلم وورد بها النص وهي كمال. والحق يجب له كلٌّ كمال (أي يليق به) .

وأما كلامه تعالى فقد كثُر في الكلام لا سيما في عصر الشافعي رضي الله عنه حتى قال: "دعونا من علم إذا أخطأ فيه الإنسان يقال له كفر وعليكم بعلم إذا أخطأ فيه الإنسان يقال له أخطأ". ولما كثُر الكلام في صفة كلامه تعالى سموا علم التوحيد علم الكلام .

قال المعتزلة أن كلامه تعالى مخلوق فهو متكلم بكلام يخلفه (47). وقال جمع: يتكلم بحروف قديمة. وقال جمع: ورق المصحف وجده ونقشه قديمات؛ وهذا ظاهر البطلان، وكذا كون الحروف قديمة لأن الحروف لها تكيف وهبات ومخرج، وذلك عين الحدوث. وقول المعتزلة مردود بأن الله تعالى سمي القرءان العظيم منزلاً في عالياتٍ ولم يسمه مخلوقاً فنفق عند تسميته تعالى .

وأما مذهب أهل السنة أن كلامه النفسي القائم به تعالى صفتة تتعلق بالواجب والجائز والمستحيل، لا حرف لها ولا صوت (48) هو به اعْمَرْ نَاهٍ مُخْبِرٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ تَعْلَمُ وَهُوَ صوت (49). فتفهوموا ذلك رحمة الله .

وأما القرءان العظيم والكتب المنزلة من السماء والحديث القدسي والصحف الربانية فكل ذلك كلامه تعالى (50). ثم إطلاق هذا الاسم على إما من باب الإشتراك كالعين هي اسم للباصرة والنابعة، أو من باب الحقيقة والمجاز كالأسد اسم للسبع حقيقة وللرجل الشجاع مجازاً، ولا يجوز إطلاق لفظ الخلق عليها وإن قلنا منزلة والتنزيل حدوث (51) لكن يجب الوقوف عند الوارد .

ثم المنزل إن كان مكتوباً كالتوراة فالمراد ما هو مكتوب، وإن كان وحياً كالقرءان فإنزاله بإنزال الملك لأن الكلام عَرَضٌ لا يقوم بنفسه بل بغيره؛ فإطلاق الإنزال عليه من إطلاق اسم المحل على الحال .

واعلم أنه لا فرق بين إنزال ونزل، خلافاً لمن فرق أخذًا من قوله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) فجعله لما أنزل تدريجًا، ومن قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جَمْلَةً وَاحِدَةً) الآية، فخَصَّ لفظ (نزل) لما يكون جملة، وهذا غلط لأنَّه لو اختص بالمجمل لما ذكر لفظ (جملة) مع لفظ (نزل)، وقد قال تعالى (وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) فهما بمعنى واحد والله أعلم .

وقد قال كثير من العلماء أن اللفظ حادث والمعنى قديم وهذا قول صحيح، لكن فهم بعضٌ أن المراد بالمعنى هو تفسير القرآن فقال: المعنى فيه قديم ذات الله تعالى وفيه حادث كفرعون، وهذا فهم سقيم. وإنما المراد بالمعنى ما قام بالله تعالى لا ما قام بقلب السامع فإن الذي يستقر بقلب السامع كالمفهوم فافهم التعبير .

وقال بعض: كيف يأمر وينهى ويخبر في الأزل وليس هناك من يأتمر وينتهي ويسمع الأخبار؟ وفرق بين الخبر والأمر والنهي يجعل الخبر قدِيمًا والأمر حادثًا، وهذا وهو خفي فإن صفة القدرة والحلم والعفو والغفران وغيرها كذلك ليس هناك من تتعلق به القدرة وهذه الصفات وإنما هذا تعلق صلويٍّ كما تقدم؛ ثم لم يزل هذا التعلق إلى إبراز ذلك الأثر إلى ما لم يزل. وإذا حدثتك نفسك بالاطلاع على حقيقة كلامه فارجع إلى كلامك تجد نفسك لا تقدر على إدراكه وهو قائم بك فحينئذ يجب رد العلم له تعالى وترك البحث .

فائدة: يجب السكوت عند قول القائلين بالتفضيل بين كلام الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم فالبحث في هذا الشأن حماقة وجحالة، وما ورد أن حرفًا من القرآن خير من محمد وآمال بيته هذا لم يصح فالواجب السكوت عن هذا. وأنت لا تدرك كيفية أكلك وشربك وبيوك وأملك وفرحك، كيف تخوض في هذا الأمر؟ وقد تعذب أممٌ من العلماء على أن يقولوا: "كلام الله مخلوق والقرآن مخلوق"، فتحمّلوا العذاب الشديد من أولاد الرشيد مدة من السنين ولم يقولوا هذه الكلمة وأنت تقولها من غير تعب .

القاعدة الثامنة: الصفات السبع المعنوية

يجب له تعالى سبع صفات يسمونها معنوية نسبة للمعنى وهي ملزمة للسبعين السابقة، ولذا نسبت إليها وتسمى أحوالاً، وقيل الحال محل، والمراد تسميتها أحوالاً باللفظ النحوي لا بالمعنى المنتقل كجاء زيد راكباً، على أن الحال تكون مستمرة كخلق الله تعالى الغراب أسود فهي حالة لازمة .

وصفات الله السبعة المعنوية: قادر ومرید وعالم وهي وسميع وبصیر ومتكلم. وهذه الصفات نفيها عنه تعالى كفر ولذا قال المعتزلة وغيرهم بها. فإن كل مؤمن وكل من نسب إليه الإيمان يشهد بهذه الصفات لكن على اختلاف في معناها. وقد علمت أنه تعالى ليس كمثله شيء وهو السميم البصیر. ثم اختلف أهل العلم في صفة الإدراك وهي تتعلق بالمشمول والملموس والمذوق من دون اتصال بمحالها فقيل: له صفة الإدراك لأنها من الكمالات، وقيل: صفة العلم والسمع والبصر كافية عنها، والله يعلم ما هو عليه. ولم يرد لها لفظ يدل عليها لا في كتاب ولا سنة .

واختلفوا في صفات الفعل كالتألُّخ والترزيق والإماتة والإحياء، فعند الأشاعرة لا يسمون ذلك صفة (52) بل يقولون: أفعاله تعالى حادثة لأنها تتعلق بالحوادث. وقال الماتريدية: أن صفات الأفعال قديمة (53) لأنَّه في الأزل متصرف بالتألُّخ والترزيق وغيرها من صفات الأفعال. وقال الأشاعرة: هذا تعلق القدرة بالأشياء قبل وجودها لا نفس الفعل وهذا الخلاف لفظي لا معنوي، فإن تعلق القدرة بالمقدورات قديم عندهما ولكن هذا التعلق ما اسمه؟ فقيل: اسمه صفة الفعل، وقيل: لا بل اسمه تعلق القدرة. وصفة الفعل هي إيجاد الموجود وإعدام المعدوم، وحينئذ فالمدار على اللفظ والمعنى يرجع لأمر واحد .

فائدة المالكية والشافعية أشعرية وإمامهم أبو الحسن الأشعري من ذرية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. والحنفية ماتريدية وإمامهم أبو منصور الماتريدي. وهما إماماً أهل السنة والجماعة. والحنابلة أثرياء لأنهم يتبعون النصوص من دون تأويل، وأصحاب داود الظاهري يتبعون ظاهر النصوص حتى في الفقه. وهؤلاء كلهم على خير إن شاء الله تعالى .

والمعزلة فرق، منهم مجسدون ومنهم القدريّة يقولون: "لا قدر" (54)، ومنهم مَن ينكر العلم بالفردات دون المجمل من الخلق. وأما الذين يقولون بخلق القرآن وبالصلاح والأصلح والحسن ما حسنه العقل وينفون الرواية في الآخرة عن الله تعالى ويُكفرون مرتکب الكبائر ويجعلون المنازل في الآخرة ثلاثة ويقولون: الخلق تخلق أفعالها والله لا يخلق الفحشاء، فهو لاء استمروا إلى مدة محمد الأمين وعبد الله المأمون أولاد هارون الرشيد وانتصروا بهما وشهروا مذهبهم وحملوا العلماء عليه بالسيف؛ ولما ظهر المعتصم ابن الرشيد فلم يسأل عن هذه الشرور فضعف حالهم. ثم لما ظهر المتوكل أظهر المذهب الشافعي رضي الله عنه ومذهب أهل السنة والجماعة ومحق الله المعزلة ومزقهم كل ممزق. وكانوا من أتباع سيدنا أبي حنيفة في الفقه دون الاعتقاد، ولم ينزل إلى الان فيهم أهل اعتزال وسموا أنفسهم أهل العدل .

وأما الجبرية فإنهم ينفون الكسب عن العبد وربما أسقطوا عنه الكلف الشرعية لأنه لا فعل عندهم وعلى مذهبهم الإباحة القرنديّة ف Gundem لا حلال ولا حرام ولا كلفة .

وأما الجهمية (55) فإنهم يقولون لا يضر مع الإسلام ذنب كما لا ينفع مع الكفر عمل، فالإيمان عندهم كافٍ عن كل أمر لكنهم يتبعون، ومنهم من يقول إذا عرف العبد ربَّه لم يلزمـه شيء بعد ذلك والتکلیف لأهل الغفلة والحجـاب .

وأما الرافضة (56) فإنهم أقسام، أخفهم مَن يفضل علياً على كل الصحابة، وبافي فرقهم لا يخلو من مکفر كاذب عاشة رضي الله عنه وغلط جبريل في النبوة والحلول في علي وجعفر وقذف الصحابة، وأهل الخفة منهم والرفق يتعبدون عبادة من غير دليل صحيح .

وأما الزنديق فهو الذي لا يتدين بدين .

وأما الملحدون فهم الذين يزولون القرآن برأيهم الفاسد مثل (صم بكم عم) يقولون: صم عن غيره بكم عن غيره عمـي عن غيره، والآية واردة في ذكر المنافقين فيخرون القرآن عن مواضعه الواردة ويسـمونـهم الباطنية (57) فـسـألـ اللهـ تـعـالـىـ الحـفـظـ وـالـسـلـامـةـ وـأـنـ يـقـبـضـنـاـ إـلـيـهـ غـيرـ مـفـتـونـينـ حـتـىـ نـلـقـاهـ عـلـىـ أـحـسـنـ حـالـ إـنـهـ أـكـرـمـ الـأـكـرـمـينـ .

القاعدة التاسعة: في علم التوحيد

اعلم أن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) جامعة للصفات العشرين السابق ذكرها الواجبة له تعالى لأن معناها (لا معبد بحق موجود إلا الله). ويلزم من كونه متصفًا بذلك أن يكون غنياً عن كل ما سواه وأن يكون كل الكون يفتقر له تعالى، لأن هذا وصف الإله. قال الشافعي رضي الله عنه: "من تعـلـقـ هـمـتـهـ بـغـيرـ مـجـسـوـدـ فـهـوـ مـعـطـلـ وـمـنـ تـعـلـقـ هـمـتـهـ بـمـوـجـودـ مـحـصـورـ فـهـوـ مـجـسـمـ وـمـنـ تـعـلـقـ هـمـتـهـ بـمـوـجـودـ غـيرـ مـحـصـورـ فـهـوـ مـوـحـدـ".

وسئل رضي الله عنه عن دليل التوحيد عقلًا فقال: "اتحاد المصوت مع اختلاف الأصوات دليل على أنه واحد، واجتماع أربع طبائع في جسم متضادة مع انتلافها على بقائه دليل على أنه واحد"، ومعناه أنه تعالى خلق الخلق على شكل واحد في كل حيوان، فاختلاف أصوات الخلق مع اتحاد الخلق فيهم دليل على تصرف قادر مختار وأن الخلق ليس له أثر، وإن لوجب اتحاد الأصوات لاتحاد مخرجهـاـ. وهذا مثال يهـنـدـىـ بهـ إلىـ أمـورـ كـثـيرـةـ منـ تـصـرـفـهـ تـعـالـىـ فـيـ الـخـلـقـ بـمـاـ يـشـاءـ وـيـخـتـارـ. وكـذاـ يـقـالـ فـيـ أـرـبـعـ طـبـائـعـ مـتـنـافـرـةـ وـقـدـ اـتـفـقـتـ عـلـىـ حـيـاةـ جـسـمـ الـحـيـوانـ مـعـ أـنـ كـلـ طـبـيـعـةـ قـاتـلـةـ، ثـمـ أـلـفـهاـ تـعـالـىـ عـلـىـ نـفـعـ الـحـيـوانـ، وـذـكـرـ دـلـيـلـ عـلـىـ وـحـدـةـ الـمـتـصـرـفـ وـعـلـىـ سـعـةـ قـدـرـتـهـ وـعـظـيمـ إـحـاطـتـهـ وـأـنـ فـاعـلـ مـخـتـارـ لـيـسـ لـمـرـادـهـ مـانـعـ يـمـنـعـ، لـاـ مـانـعـ لـمـاـ أـعـطـيـ اللـهـ وـلـاـ مـعـطـيـ لـمـاـ مـنـ اللـهـ .

إذا علمت أن كلمة التوحيد تدل على غناه تعالى فخذ منها صفة الوجود والقدم والبقاء والقيام بالنفس ومخالفته للكائنات والوحدانية والحياة والسمع والبصر والكلام وكـونـهـ حـيـاـ سـمـيـعـاـ بـصـيرـاـ مـتـكـلـماـ .

وإذا علمت أنها تدل على افتقار ما سواه له تعالى فخذ منها القدرة والإرادة والعلم وكونه قادرًا مريداً عالماً، لأن الكون لا يفتقر إلا لمن اتصف بهذه الصفات. وربما دخل الوجود مع الوحدانية في الشق الثاني .

ولما كانت كلمة التوحيد متضمنة للصفات الواجبة جعلها الشارع عنواناً على الإسلام بحيث لا يقبل إلا بها (58) وهذا بما دل عليها عند بعض العلماء .

وفي حديث ضعيف: (لا إله إلا الله حصني من دخله أمن من عذابي) ومعناه صحيح وإن كان في سنته مقال (59) . وأعلم أن الشارع جعل قانوناً عربياً للكلمات العربية فلا بد من مراعاته من مد (لا) وإظهار همزة (إله) وهانه وتشديد (إلا) وإظهار مدة لفظ الجملة والهاء، ولا تغيرها عن قانونها الشرعي ولا تغدر بما عليه أهل العصر من الاختصار لبعض هيئة حروفها فإن الخير في الإحسان والإتقان، ولا خير فيما دخله خلل في القلب أو اللسان .

فإسقاط ألف (لا) يوجب ثبوت الله غيره تعالى، وابدال ألف (إله) باء أو إسقاطه هانه يوجب تسميته تعالى بغير لفظ (إله) ، وتخفيف (إلا) يفسد المعنى الذي وضع هذه الكلمة لأجله، وإسقاط باء (الله) يوجب التسمية بغير الاسم المشروع، وكل ذلك خلل ومن رضي لنفسه بالخلل فهو مفرط في نفسه ومتبوع هوها (60). ولا بد من مراعاة معنى الاستثناء باللقب قبل التلفظ به ليتم لك نظام التوحيد .

وأعلم أيها الذاكر أنك حالة ذكر لربك فقرر أنك وزير السلطان فانتظر كيف يجالس الوزير الملك، وإذا نظرت أنك من أقل جنده فانتظر كيف تجالسه وتخاطبه، وإذا عمي عليك الأمر و كنت جامد الذهن بعيد الفهم فانتظر كيف أدبك في الصلاة فاجعل حالة الذكر حالة الصلاة لأنها ذكر، فإذا تأملت ذلك ورسخ في قلبك، جعل الحق قلبك طوراً لأسراره وأفاض عليك أنواره ووسع صدرك لمعرفته وبهيك لحكمته، واحذر تقليد أهل الغرور ومن يعتمد على عقله فحيينه تكون حمار الرحى يدور ثم يرجع لمكانه فيضيع سعيك وأنت في مكانك لم تبرح منه. والزم ثياب الذل في ذكر تكن أقرب من غيرك للتلقى أنوار المعارف الربانية .

وأعلم أنه تولع كثير من الناس بادخال لفظ اللاهوت في كلامهم وهذا من الأفاظ أهل الكتاب يريدون به الإله، فلا ينبغي التمسك بما لم يرد في شرعنا ولا سيما أنهم قالوا: حل اللاهوت في النascوت وأرادوا بذلك أن الإله حل في جسم عيسى وظهر بصورة الإنسان، فلا يليق التكلم بشيء نشا عنه كفر .

وأعلم أن جملة (محمد رسول الله) يجب معرفة معناها وأنه جاءنا من عند الله تعالى بالقرآن العظيم، ويجب الإيمان بكل الأنبياء لأن رسالته صلى الله عليه وسلم تضمنت رسالة غيره ونبيه الأنبياء (61) فيجب الإيمان بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والإيمان بالملائكة الكرام عليهم السلام والإيمان بالكتب السماوية وبالاليوم الآخر، وما يقع فيه من الحساب بعد النشر والحضر وبالصراط والميزان والصحف والجنة والنار وبخلود أهلها وبالحوض والشفاعة وبسلامة أهل الإيمان من الخلود في العذاب إن عذبوا، وبإظهار العدل فيخلق، وبرؤية المؤمنين الله كما يليق به تعالى، وبعذاب القبر ونعمته والسؤال فيه عن التوحيد والرسول صلى الله عليه وسلم .

فك كل هذه الأشياء جاءت بها الرسل فيجب الإيمان بها وهي من أمور الغيب جاء بها الصادق، فالإيمان بها واجب. ثم الإيمان بالأنبياء يوجب الإيمان بصدقهم وأماناتهم وعصمتهم وأنهم على أكمل حال ظاهر وباطن، لأن الله تعالى عالم وقدر فلا يرسل لعباده رسولاً يبلغ عنه حكمه إلا كامل العلم والمعرفة حسن الخلق والخلق والصوت، حليماً رحيمًا كريماً شريف النسب معمظاً في قلوب أمته ليرغبو في الاتباع وتقوم حجة الله عليهم. فسيد الرسل أعظم الناس خلقاً وخلقًا وحلاً وعلمًا وعقلًا وفهمًا ولطفًا وكرماً، وأوسعهم صدراً وقلبًا. وكفانا بياناً لعظيم قدره كتاب الله العزيز المصرح برفعه شأنه لقوله تعالى: (وإنك لعلى خلق عظيم) أكد الحكم وأتى بلفظ (على) الدالة على تمكنه كالمستعلي على الشيء، ونونه لتعظيمه ثم وصفه بعظيم للدلالة على أنه أمر لا يدرك. ففي هذه الآية من الإعلام برفعه مقامه ما لا يحيط به إلا من منحه وأعطاه ومن عليه وحباه فسبحان من اختراه واصطفاه .

وك قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين روف رحيم) فوصفه بأنه من انفسهم وهم يدعون كمال الشرف في النسب والحسب وعرفهم بأنه من جملتهم ليس هو من جنس لا يعرفونه أو مجهولاً يتهمنوه، بل عرفوه بالصدق والعفاف والأمانة وكرم الأصل وشرف النفس، فلا يليق بهم الإعراض عنه. ثم بين أنه يعز عليه مشقة أمنته لفطر رحمته بالخلق وكمال لطفه ورأفته فيحب لهم السلام والنجاة من كل مكره، وأنه حريص شديد الاعتناء بمنافعهم وهدائهم ورشدهم وأنه روف ورحيم بالمؤمنين، ومفهومه أنه شديد على الكافرين وهو كذلك، فإنه جامع لوصف الكمال من معاداة أعداء الله وموالاة أوليائه، وهذا وصف الكل من الخلق لا تأخذهم في الله لومة لائم.

وك قوله تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحمة بينهم) الآية ومدح أتباعه مدح له لأنهم تلقوا تلك الأنوار من نوره واهدوا بهديه فهو الواسطة في وصفهم بالكمال، فكمالهم ناشئ عن كماله. وقد وصف سبحانه وتعالى أصحابه بصفات الكمال وأخبر أنه تعالى ذكر ذلك لأهل الكتاب وبنائهم على فضيلة اتباع هذا الرسول المكرم وذلك زيادة في رفعة شأنهم وأن لهم عناية عظيمة من قبل الله تعالى.

وك قوله تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين ظلموا صلوا عليه وسلموا تسليماً) الصلاة من الله رحمة خاصة تدل على اللطف والإكرام. ثم في هذه ما لا يدرك من تعظيمه والإعلام برفعة قدره فإنه تعالى أكد الحكم بأن وعطف الملائكة على اسمه الكريم للدلالة على اندراج صفاتهم عليه في ضمن صفاتاته تعالى، وأخبر بجملة فعلية تدل على تجدد ذلك، وعرف النبي بألف فكانه علم بالنبوة، ثم أمر العباد بالصلاحة عليه تبعاً لصلاته عليه وزادهم لفظ السلام المؤكدة بالمصدر؛ فإن أريده به الانقياد لأمره ونهيه فلأنهم المكلفوون بطاعته، وعلى كل فالمراد يشير لرفعة قدره وعظيم مجده وفخره.

وك قوله تعالى: (وإن طبائعكم تهتدوا) وقوله تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وبالجملة فضلاته عليه الصلاة والسلام جلي ظاهر.

ثم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم معظمون موقرون يجب الإيمان بهم من غير حصر لعددهم لأن النصوص الواردة في عددهم أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً (62) أو مائتا ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل منهم ثلاثة وثلاثة عشر أو أربعة عشر أو خمسة عشر نصوص لم تصح فلا يعتمد عليها (63) كما أن الكتب لم يصح عددها من مائة وأربعة أو أربعة عشر.

فنؤمن أن الله أرسل رسلاً وأنزل كتاباً عدداً، والمعلوم في كتاب أو سنة يجب تفصيله والمجمل يكفي فيه الإجمال.

ويجب الإيمان بالملائكة أي بوجودهم وأنهم أجسام نورانية (64) قادرٌون على التشكّل (65) (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وأنهم محفوظون بحفظه تعالى. وما يرويه أهل القصص من خيانة هاروت وماروت فهو من الموضوع.

وأما إبليس فإنه من الجن لا من الملائكة (66) وإنما دخل في الأمر بالسجود لأنه كان مع الملائكة، فلفظ الملائكة من باب التغليب. ومن قال أنه ملك فهو محجوج بأن له نسلاً والملائكة لا يوصفون بذلك ولا أنوثة (67)، فمن وصفهم بالأنوثة كفر لأنه قول المشركين القائلين بأنهم بنات الله تعالى وهم بنو مليح وفرق من العرب لا كل العرب. قال تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) (وقالوا اتخذ الرحمن ولدأ سبحانه بل له عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارضى وهم من خشيته مشفقون) وقال تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) وقال تعالى (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون). فشهد الله بعصمتهم فهم أمناء على وحيه وسفراء إلى خلقه لم يركب فيهم شهوة. اصطفاهم لخدمته ووظيف لهم وظائف كما حكى عنهم بقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم وإننا لحن الصافون وإننا لحن المسبحون) وقوله تعالى (أتجعل فيها من يفسد فيها) الآية، ليس هو للاعتراف وإنما على سبيل الاستعطاف والاسترحام لكراهتهم

للمعاصي التي وقعت من الجن في الأرض قبل خلق عادم عليه السلام. وقد جعلهم الله تعالى حفظة لبني عادم وكتبة وخداماً في مصالح الأرزاق والأمطار والسحاب وغير ذلك وفي نفح الأرواح في الأجنة وقبضها عند الموت، وذلك ليس حاجة منه لهم بل هذا عبادة شرعت لهم كما أقام بعضهم في السجود وبعضهم في القيام أو الركوع أو التسبيح. وهم أكثر خلقه، قال تعالى (وما يعلم جنود رب إلا هو) وفي السنة (أطّل السماء وحق لها أن تتطاير ما فيها قدر راحة إلا وفيها ملك ساجد أو راكع) (68). وصورهم مختلفة ولهم أجنة ورؤوس متعددة وصور عظيمة فسبحان من أحاط علمًا بكل ذلك. ولا مانع من أن يقدر بعض بني عادم على رؤيتهم الملكية، أما الآتياء فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل على صورته مرتين (69) مرة في الأفق بين السماء والأرض فارعب ومرة عند سدرة المنتهى. وفي غير ذلك كان يأتيه على صورة عادمي وتارة يسمع صوته ولا يراه وتارة يُلقى الوحي في روعه أي قلبه من دون رؤية ولا صوت (70) وتارة يسمع له صلصلة كالجرس وهذا النوع من الوحي كان أشد عليه من غيره وكانت تأخذه البراء عند الوحي بالقرآن قال تعالى (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً) وورد في شمائله عليه الصلاة والسلام أنه كان يتحدر جبينه عرقاً وقت الوحي في اليوم البارد من ثقل الوحي، وورد أنه لما نزلت عليه سورة الفتح عند مرجعه من الحديبية عام ستة من الهجرة في بر الغمام مكان قبيل عسفان وكان راكباً على ناقته العضباء فكادت تبرك به صلى الله عليه وسلم من ثقل الوحي زاده الله شرفاً وكراً وأباح روضته الشريفة سحاب الصلوات وهوائل البركات ونظمنا في سلك محبيه وأهل وده وموالاته عاله وأصحابه صلى الله عليه وعليهم أجمعين ءامين والحمد لله رب العالمين .

تم الكتاب

الهوامش

(1) الرين هو الطبع والذنس كما في الصحاح. وقال الراغب: "صدا يعلو الشيء الجلي". وقال أبو معاذ النحوبي: "الرين أن يسوّد القلب من الذنوب". وقال الحسن: "هو الذنب على الذنب حتى يسوّد القلب" .

(2) وهو الهلاك. ذكره ابن منظور في لسان العرب .

(3) النسخ معناه رفع حكم شرعى سابق بحكم شرعى لاحق. وليس في النسخ نسبة البداء إلى الله كما زعمت اليهود مع اعترافهم بأن الله تعالى أحل في شريعة يعقوب الجمع بين الأخرين ثم نسخ ذلك بعده. فكيف يعيرون النسخ فيما سوى ذلك كنسخ استقبال النبي بعد الهجرة إلى بيت المقدس للصلاحة سبعة عشر شهراً بالأمر بالرجوع إلى استقبال الكعبة بقوله تعالى: (فول وجهك شطر المسجد الحرام). ثم إن من المعلوم أنه لا يمتنع في الحكمة أن يأمر الحكيم مريضاً باستعمال دواء في وقت ثم ينهاه عنه في وقت آخر لتعلق صلاحه بذلك في الحالين. والله تعالى لا يتغير علمه بل هو عالم في الأزل باختلاف مصالح عباده لتغيير أحوالهم، فالله تعالى يتصرف في عباده بنقلهم من الصحة إلى المرض ومن الغنى إلى الفقر ومن الحياة إلى الموت وعكس ذلك، ولا يخرج ذلك من الحكمة. ثم من موارد النسخ (عن الله زوارات القبور) رواه أبو داود وصححه الحافظ، نسخ بحديث (كنت نهيتكم عن زيارة القبور إلا فزوروها). فيجب الإيمان بصحة النسخ ووقوعه .

(4) ذكر الفقيه اللغوي مرتضى الزبيدي نقاً عن الحافظ تقي الدين السبكي: "المُقْبِمُ على تفسير الاستواء بالاستيلاء لم يرتكب محدوداً، ولا وَصَفَ الله بما لا يجوز عليه". أهـ فتبين أن تفسير استواء ليس فيه تجسيم لله ولا نسبة نقص لأن الاستيلاء بمعنى القهر ولا عبرة لإنكار بعضهم لذلك، فإن كان إنكاره من حيث اللغة فلا وجه له ولا مستند. قال الشاعر :

فَلَمَا عَلَوْنَا وَاسْتَوْيَنَا عَلَيْهِمْ ... جَعَلْنَا هُمْ مَرْعَى لَنْسَرٍ وَطَائِرٍ

وإن كان من حيث المعنى فقوله محتاجاً لإنكار التفسير باستولى أن استوى جاء في القراءان في سبع مواضع ولو كان بمعنى استولى لجاء في موضع، قال الحافظ تقي الدين السبكي: "وهذا الذي قاله ليس بلازم فالمجاز قد يطرد".

(5) ويکفي في تبرئة الإمام أحمد ما نقله الإمام أبو الفضل التميمي رئيس الخانبة ببغداد وابن رئيسها عن أحمد، قال: "أنكر أحمد على من قال بالجسم وقال أن الأسماء مأخوذة من الشريعة واللغة، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على ذي طول وعرض وسمك وتركيب صورة وتأليف، والله سبحانه وتعالى خارج عن ذلك ولم يجيء في الشريعة فبطل"، نقله البيهقي عنه في كتاب مناقب أحمد.

(6) ثبت عن الإمام أحمد أنه أول لما روى البيهقي في كتاب مناقب أحمد عن حنبل بن إسحاق قال سمعت عمي أبي عبد الله - يعني الإمام أحمد - يقول: احتجوا عليَّ يومئذٍ يعني يوم نظر في دار أمير المؤمنين فقالوا تجيء سورة البقرة يوم القيمة وتجيء سورة تبارك، فقلت لهم: إنما هو الثواب. قال الله تعالى: (وجاء ربك) إنما تأتي قدرتك - أي أثر قدرتك - وإنما القراءان أمثلة ومواعظ. اهـ . وقال البيهقي: هذا إسناد صحيح لا غبار عليه .

(7) نقل البيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن الإمام أبي سليمان الخطابي أنه قال: "إن الذي علينا وعلى كل مسلم أن يعلمه أن ربنا ليس بذي صورة ولا هيئة فإن الصورة تقتضي الكيفية، والكيفية منفية عن الله وعن صفاتاته" اهـ .

(8) رواه اللالكاني عن أم سلمة رضي الله عنها وربيعة بن أبي عبد الرحمن .

(9) ذكر البيهقي في كتابه الأسماء والصفات نقاً عن أبي سليمان الخطابي أنه قال: "وليس معنى اليد عندنا الجارحة إنما هو صفة جاء بها التوفيق فنحن نطلقها على ما جاعت ولا نكيف وننتهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب والأخبار المأثورة الصحيحة وهو مذهب أهل السنة والجماعة .

(10) قوله تعالى: (ويبقى وجه ربكم ذو الجلال والإكرام). [سورة الرحمن]

(11) قوله تعالى: (يخافون ربهم من فوقهم) والمعنى هنا فوقية القهر دون المكان والجهة ..

(12) قوله تعالى: (وهو معكم أينما كنتم) .

(13) قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر: "ورضاه وغضبه من صفاته بلا كيف" و قال أيضاً: "والتحير والاختلاف في الأحوال من صفات المخلوقين". اهـ .

(14) وهو ما لم تتضح دلالته، أو يحتمل أوجهها عديدة واحتاج إلى النظر لحمله على الوجه المطابق .

(15) وهو ما لا يحتمل من التأويل بحسب وضع اللغة إلا وجهاً واحداً، أو ما عُرف بوضوح المعنى المراد منه .

(16) ذكر التفتازاني في شرحه على العقيدة النسفية بعد أن ذكر أن الإيمان والإسلام واحد: "ويؤيده قوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين بما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)".

(17) يجوز أن يقال: (الله موجود)، ذكر شارح القاموس الزبيدي في شرح الإحياء ما نصه: "والباري تعالى موجود فصح أن يُرى". فلا عبرة بقول من زعم أن كلمة (موجود) هي اسم مفعول تدل على المخلوق فقط .

(18) قال الشيخ عبد الغني النابلسي في الفتح الرباني ما نصه: "ونشهد أنه تعالى لم يحل في شيء من مخلوقاته، ولا حلَّ فيه شيء من مخلوقاته. لأن الحلول إنما يتصوَّر بين الشيئين اللذين يجمعهما وصف واحد. ولا مناسبة بين العبد والرب في شيء من الأشياء ولا في مجرد الوجود. فكيف يتصوَّر أن يحل أحدهما في الآخر ويتحد أحدهما بالآخر"

اـهـ. وـذـكـرـ أـيـضاـ فـيـ أـقـسـامـ الـكـفـرـ فـيـ تـبـيـانـ كـفـرـ التـشـبـيـهـ: "أـوـ أـنـهـ مـلـاـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ أـوـ أـنـ لـهـ الـحـلـولـ فـيـ شـيـءـ مـنـ الـأـشـيـاءـ أـوـ فـيـ جـمـيعـ الـأـشـيـاءـ، أـوـ أـنـهـ مـتـحـدـ بـشـيـءـ مـنـ الـأـشـيـاءـ أـوـ فـيـ جـمـيعـ الـأـشـيـاءـ أـوـ أـنـ الـأـشـيـاءـ مـنـحـلـةـ مـنـهـ، وـجـمـيعـ ذـكـرـ كـفـرـ صـرـيـحـ وـالـعـيـاذـ بـالـلـهـ تـعـالـىـ" اـهـ

(19) "أـمـاـ بـرـهـانـ قـدـمـهـ تـعـالـىـ فـهـوـ لـمـ يـكـنـ قـدـيـماـ لـزـمـ حـدـوـثـهـ فـيـ فـيـقـتـرـ إـلـىـ مـحـدـثـ فـيـلـازـمـ الدـورـ أـوـ التـسـلـسـلـ وـكـلـ مـنـهـاـ مـحـالـ، لـكـنـ حـدـوـثـهـ تـعـالـىـ مـحـالـ قـطـعاـ فـبـثـ قـدـمـهـ تـعـالـىـ" ، اـنـتـهـيـ كـلـمـ الشـيـخـ الـحـبـشـيـ فـيـ دـلـيـلـهـ .

(20) ذـكـرـ مـحـمـدـ بـنـ يـوـسـفـ فـيـ شـرـحـ الـكـبـرـيـ مـاـ نـصـهـ: "أـلـمـ كـلـهـ اـجـمـعـتـ عـلـىـ حـدـوـثـ كـلـ مـاـ سـوـىـ اللـهـ، حـتـىـ الـيـهـودـ وـالـنـصـارـىـ وـحـتـىـ الـمـجـوسـ وـلـمـ يـخـالـفـ فـيـ ذـكـرـ إـلـاـ شـرـذـمـةـ مـنـ الـفـلـاسـفـةـ وـتـبـعـهـمـ عـلـىـ ذـكـرـ بـعـضـ مـنـ يـنـسـبـ نـفـسـهـ إـلـىـ الـإـسـلـامـ وـلـيـسـ لـهـ فـيـهـ نـصـيبـ . وـالـاشـتـغـالـ بـتـفـصـيـلـ مـذـاهـبـهـمـ يـطـوـلـ . وـمـذـاهـبـهـمـ رـكـيـكةـ جـداـ لـاـ يـرـضـيـ بـمـقـالـتـهـمـ مـؤـمـنـ بـلـ وـلـاـ مـطـلـقـ عـاقـلـ إـلـاـ مـنـ سـلـبـ عـقـلـهـ وـإـيمـانـهـ فـيـهـ لـاـ حـوـلـ وـلـاـ قـوـةـ إـلـاـ بـالـلـهـ" . اـنـتـهـتـ عـبـارـتـهـ . وـقـدـ عـلـقـ الشـيـخـ عـبـدـ اللـهـ الـحـبـشـيـ عـلـىـ هـذـاـ بـقـوـلـ: "وـهـنـاـ يـنـكـشـفـ تـمـوـيـهـ أـحـدـهـمـ وـيـنـجـلـيـ تـلـبـيـسـهـ بـنـسـبـهـ هـذـاـ الرـأـيـ الـفـلـاسـفـيـ الـذـيـ هوـيـ لـنـفـسـهـ إـلـىـ أـنـمـةـ أـهـلـ الـحـدـيـثـ وـمـاـ هـوـ إـلـاـ فـرـيـةـ، فـقـدـ اـتـضـحـ لـكـلـ ذـيـ عـقـلـ سـلـيـمـ يـفـهـمـ مـعـنـيـ الـعـبـارـتـ فـسـادـهـ عـقـلـاـ وـمـعـارـضـتـهـ لـلـمـنـقـولـ . وـإـذـاـ حـوـقـقـ هـوـلـاءـ الـقـائـلـونـ بـهـذـاـ الرـأـيـ فـيـ الـمـنـاظـرـ وـأـلـزـمـواـ بـأـنـ النـوـعـ لـاـ وـجـودـ لـهـ إـلـاـ فـيـ ضـمـنـ الـأـفـرـادـ اـنـقـطـعـوـاـ، وـمـنـ حـقـ النـظـرـ فـيـ رـأـيـهـمـ هـذـاـ عـلـمـ أـنـهـ يـرـجـعـ إـلـىـ القـوـلـ بـأـرـزـلـيـةـ الـأـفـرـادـ لـأـنـ النـوـعـ لـاـ وـجـودـ لـهـ إـلـاـ ضـمـنـ الـأـفـرـادـ" اـهـ كـلـمـ الـحـبـشـيـ .

(21) روـيـ الـبـخـارـيـ وـابـنـ الـجـارـودـ وـالـبـيـهـقـيـ مـنـ حـدـيـثـ عـمـرـانـ بـنـ الـحـصـينـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـالـ: "أـتـىـ أـنـاسـ مـنـ أـهـلـ الـيـمـنـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـقـالـوـاـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ جـنـاكـ لـنـتـفـقـهـ فـيـ الـدـيـنـ فـأـتـبـنـاـ عـنـ بـدـءـ هـذـاـ الـأـمـرـ مـاـ كـانـ . قـالـ: "كـانـ اللـهـ وـلـمـ يـكـنـ شـيـءـ غـيـرـهـ وـكـانـ عـرـشـهـ عـلـىـ الـمـاءـ وـكـتـبـ فـيـ الذـكـرـ كـلـ شـيـءـ ثـمـ خـلـقـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ" وـفـيـ روـاـيـةـ اـبـنـ الـجـارـودـ: "عـنـ أـوـلـ هـذـاـ الـأـمـرـ" وـفـيـ روـاـيـةـ الـبـيـهـقـيـ مـنـ طـرـيـقـ أـبـيـ مـعـاوـيـةـ: "كـانـ اللـهـ قـبـلـ كـلـ شـيـءـ" . وـقـدـ ذـكـرـ الـحـافـظـ اـبـنـ حـجـرـ: "وـالـمـرـادـ بـكـانـ فـيـ الـأـلـزـلـيـةـ، وـفـيـ الـثـانـيـ الـحـدـوـثـ" اـهـ وـقـدـ روـيـ اـبـنـ حـبـانـ وـابـنـ مـاجـهـ مـنـ حـدـيـثـ أـبـيـ هـرـيـرـةـ أـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـالـ: "كـلـ شـيـءـ خـلـقـ مـنـ الـمـاءـ" . وـلـفـظـ اـبـنـ حـبـانـ: "إـنـ اللـهـ تـعـالـىـ خـلـقـ كـلـ شـيـءـ مـنـ الـمـاءـ" . فـإـذـاـ الـمـاءـ أـصـلـ لـغـيـرـهـ، وـالـمـاءـ خـلـقـ مـنـ غـيـرـ أـصـلـ. فـبـدـايـةـ الـعـالـمـ مـنـ غـيـرـ مـادـةـ وـلـاـ يـحـيلـ الـعـقـلـ وـجـودـ أـصـلـ الـعـالـمـ مـنـ الدـعـمـ مـنـ غـيـرـ مـادـةـ .

(22) ذـكـرـ السـيـوطـيـ فـيـ شـرـحـ التـرـمـذـيـ مـاـ نـصـهـ: "وـأـمـاـ حـدـيـثـ أـولـيـةـ الـنـورـ الـمـحـمـدـيـ فـلـمـ يـثـبـتـ" اـهـ وـأـمـاـ قـوـلـ اـبـنـ حـجـرـ الـمـكـيـ فـيـ شـرـحـ الـأـرـبـاعـيـنـ الـنـوـوـيـةـ: "إـنـ أـولـيـةـ الـنـورـ الـمـحـمـدـيـ أـولـيـةـ مـطـلـقـةـ وـأـولـيـةـ مـاـ سـوـاهـ مـنـ الـمـاءـ وـالـعـقـلـ وـالـقـلـمـ فـأـولـيـةـ نـسـبـيـةـ" فـبـاطـلـ . وـالـقـاعـدـةـ الـحـدـيـثـيـةـ أـنـ الـضـعـيفـ إـذـاـ عـارـضـ الصـحـيـحـ إـذـاـ عـارـضـ الصـحـيـحـ فـلـاـ حـاجـةـ إـلـىـ تـأـوـيلـ الصـحـيـحـ مـنـ أـجـلـ الـضـعـيفـ، وـابـنـ حـجـرـ جـعـلـ الـحـدـيـثـ الصـحـيـحـ - حـدـيـثـ أـولـيـةـ الـمـاءـ- تـابـعـاـ مـرـجـوـحـاـ لـحـدـيـثـ أـولـيـةـ الـنـورـ الـذـيـ هوـ غـيـرـ ثـابـتـ، بـلـ قـالـ الـمـحـدـثـ أـحـمـدـ الـغـمـارـيـ فـيـ (الـمـغـيـرـ عـلـىـ الـجـامـعـ الصـغـيرـ): "إـنـ حـدـيـثـ (أـوـلـ مـاـ خـلـقـ اللـهـ تـعـالـىـ نـورـ نـبـيـكـ يـاـ جـابـرـ خـلـقـهـ مـنـ نـورـهـ قـبـلـ الـأـشـيـاءـ) مـوـضـعـ وـهـوـ جـدـيرـ بـكـونـهـ مـوـضـعـ" اـهـ . وـمـثـلـهـ مـاـ ذـكـرـ فـيـ كـتـابـ مـولـدـ الـعـرـوـسـ الـمـلـصـقـ بـابـنـ الـجـوـزـيـ: إـنـ اللـهـ قـبـضـ قـبـضـةـ مـنـ نـورـهـ فـقـالـ كـوـنـيـ مـحـمـداـ فـكـانتـ مـحـمـداـ . فـمـاـ أـعـظـ ضـرـرـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ الـمـفـتـرـىـ عـلـىـ بـعـضـ الـجـهـاـلـ فـقـدـ اـعـتـقـدـواـ بـسـبـبـهـ أـنـ اللـهـ جـسـمـ نـورـانـيـ وـأـنـ الرـسـوـلـ جـزـءـ مـنـهـ، فـكـانـ هـوـلـاءـ لـمـ يـسـمـعـواـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ (قـلـ إـنـمـاـ أـنـاـ بـشـرـ مـثـلـكـمـ)، وـهـذـاـ مـنـشـوـهـ تـرـكـ النـصـ الثـابـتـ الصـحـيـحـ مـنـ أـجـلـ الـخـبـرـ السـقـيـمـ وـالـمـوـضـعـ. وـقـدـ شـهـرـ نـسـبـهـ ذـكـرـ إـلـىـ عـبـدـ الرـزـاقـ مـعـ أـنـهـ لـاـ وـجـودـ لـهـ فـيـ مـصـنـفـهـ .

(23) نـقـلـ الـزـرـكـشـيـ فـيـ تـشـنـيـفـ الـمـسـامـعـ عنـ صـاحـبـ الـخـصـالـ مـنـ الـخـابـلـةـ عنـ أـحـمـدـ بـنـ حـنـبـلـ تـكـفـيرـ مـنـ قـالـ أـنـهـ تـعـالـىـ جـسـمـ لـاـ كـالـأـجـسـامـ .

(24) ذـكـرـ الـبـيـهـقـيـ فـيـ كـتـابـهـ الـأـسـمـاءـ وـالـصـفـاتـ نـقـلـاـ عـنـ الـأـشـعـريـ: "إـنـ اللـهـ تـعـالـىـ لـاـ مـكـانـ لـهـ" .

(25) ونقل البيهقي أيضاً عنه أن الحركة والسكون والاستقرار من صفات الأجسام وأنه قال في حديث النزول: "إنه ليس حركة ولا نقلة".

(26) ذكر البيهقي في الأسماء والصفات في باب ما جاء في العرش فقال: واستدل بعض أصحابنا في نفي المكان عنه بقول النبي صلى الله عليه وسلم (أنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء) وإذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه شيء لم يكن في مكان " اهـ .

(28) وهو أحمد بن عيسى الخراز البغدادي (أبو سعيد) صوفي من أقران الجنيد. توفي سنة 279 هـ انظر معجم المؤلفين 38.

(29) حديث صحيح رواه البخاري .

(٣٠) في تشنيف المسامع ما نصه: "فإن قيل وهل في العقل دليل أن صانع العالم واحد؟ قيل: دلالة التمانع المشار إليه في قوله تعالى (لو كان فيهما عالهه إلا الله لفسدتا) وأعلم أن الوحدة تطلق في حق الإله من ثلاثة أوجه - أحدها بمعنى نفي الكثرة المصححة للقسمة عن ذاته وهي تفسير الأحد الصمد. - الثاني بمعنى نفي النظير عنه في ذاته وصفاته كما يقال للشمس واحدة بمعنى أنه لا نظير لها في الوجود. وجود نظير للرب محل. - والثالث بمعنى أنه منفرد بالخلق والإيجاد والتدبير فلا مساهم له في اختراع المصنوعات وتدبير المخترعا".

(31) ذكر الشيخ الحبشي في (الدليل القويم على الصراط المستقيم) ما نصه تحت عنوان دليل عقلٍ: "أنه لو كان فعل العبد بخلافه لكان عالماً به على وجه الإحاطة ضرورة أنه مختار والاختيار فرع العلم، لكنه لا يحيط علماً بفعله لما يجد كل عاقل عدم علمه حال قطعه لمسافة معينة بالأجزاء والأحيان والحركات التي بين المبدأ والمنتهي. وكذا حالة ظفّه بالحرف يجد كل عاقل من نفسه عدم العلم بالأعضاء التي هي عالتها والمحال التي فيها مواقعها وعدم العلم ببنياتها وأوضاعها. وكل ذلك ظاهر قوله المأثري "اهـ".

(32) ذكر الشيخ الحبشي نقلًا عن الخطابي ما نصه: "يتوهם كثير من الناس أن معنى القبر من الله والقضاء منه الإيجار والقهار للعبد على ما قضاه وقره وليس كذلك، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله بما يكون من أفعال العباد واكتسابها وصدورها عن تقدير منه وخلقها لها خيرها وشرها" اهـ. وقد روى ابن حبان من حديث حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله صانع كل صانع وصنعته" فافهم رحمك الله .

(33) روى الإمام الشافعى والحافظ ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر عن علي رضي الله عنه أنه قال للسائل عن القدر: "سر الله فلا تتكلف" فلما ألح عليه قال له: أما إذا أبىت فإنه أمر بين أمرين: لا جبر ولا تقويض.

(34) ذكر الزركشي في تشنيف المسامع مانصه: إن الله فاعل بالاختيار، فله تقديم الحادث وله تأخيره بحسب اختياره، والدليل عليه قوله تعالى (وربك يخلق ما يشاء) اهـ.

(35) قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر: وجميع أفعال العباد من الحركة والسكن كسبُهم على الحقيقة والله خالقها. اهـ

(36) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن أبي بشر إسحق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال ابن أبي بردة ابن أبي موسى الأشعري. ولد في البصرة سنة 260 هـ وقيل سنة 266 هـ وتوفي سنة 324 هـ ودفن في بغداد.

(37) كتب الحسن بن علي إلى الحسن البصري: لو جبر الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب، ولو جبرهم على المعصية لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم كان ذلك عجزاً في القراءة ولكن له فيهم المشيئة التي غيبها عنهم. ذكره أبو نعيم في حلية .

(38) الحكم العقلي ينقسم إلى ثلاثة: الوجوب والاستحالة والجواز. فالواجب العقلي: ما لا يتصور في العقل عدمه وهو الله تعالى وصفاته. والمستحيل العقلي: ما لا يتصور في العقل وجوده كوجود الشريك لله. والجاز العقلي: ما يتصور في العقل وجوده تارة وعدمه تارة أخرى كسائر المخلوقات .

(39) قال بعضهم: "كما لا يقال عن الحجر عالم ولا جاهل" اهـ. وذكر الأستاذ أبو اسحق الإسفرايني في كتابه (الترتيب في أصول الفقه) : "أن أول من أخذ منه معنى المحال وتحقيقه إدريس عليه السلام حيث جاءه إبليس في صورة إنسان وهو كان يخبط وفي كل دخلة وخرجة يقول سبحان الله والحمد لله؛ فجاءه بقشرة وقال: الله تعالى يقدر أن يجعل الدنيا في هذه القشرة. فقال: الله تعالى قادر أن يجعل الدنيا في سم هذه الإبرة" ونحس بالإبرة في إحدى عينيه وجعله أعور. اهـ .

(40) قال الشيخ عبد الله الحبشي في (الدليل القويم على الصراط المستقيم) الإرادة على وجهين: إرادة تكوين وإرادة محبة. إرادة التكوين هي بمعنى المشيئة ومعناها التخصيص. وإرادة المحبة قوله تعالى (تريدون عرض الحياة الدنيا والله يريد الآخرة) اهـ .

(41) روى أبو داود في سنته أن النبي صلى الله عليه وسلم علم بعض بناته أن تقول: "ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن" .

(42) قال الإمام أبو منصور الماتريدي: "وقال أبو حنيفة رحمه الله: "بيننا وبين القدرة الكلام في حرفين: أن نسألهم هل علم الله ما يكون أبداً على ما يكون؟ فإن قالوا لا، كفروا لأنهم جهلو ربيهم. وإن قالوا نعم، قيل: شاء أن يتقدّم علمه كما علم أولاً؟ فإن قالوا لا، قالوا بأن الله شاء أن يكون جاهلاً ومن شاء ذلك فليس بحكيماً. وإن قالوا نعم، أقرروا بأنه شاء أن يكون كل شيء كما علم أن يكون" انتهى كلامه ذكره في التأويلات. وذكر البيهقي في مناقب الشافعي بإسناده إلى الربيع المرادي: "سئل الشافعي عن القدر فقال :

ما شئتَ كان وإن لم أشاً ... وما شئتَ إن لم تشاً لم يكن

خلفتَ العبادَ على ما علمتَ ... ففي العلم يجري الفتى والمسن

على ذا مننتَ وهذا خذلتَ ... وهذا أعنْتَ وهذا لم ثُعنَ

فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيد ... وهذا قبيحٌ وهذا حسن

(43) ذكر أبو منصور الماتريدي في التأويلات في إثبات مغایرة الإرادة للأمر: إن الله أمر إبراهيم بالذبح وفداء بكبش فلا يجوز أن يكون أراد فعل حقيقة الذبح ثم يمنع عنه بالبدل لأنه عادة البداء وعلامة الجهل، فكان الأمر لا بالذى به حقيقة الإرادة اهـ .

(44) قال الشيخ عبد الله الحبشي في (الدليل القويم على الصراط المستقيم) فإن قالوا كيف أمر الله الكافر بالإيمان وشاء منه الكفر؟ قلنا كيف أمره بالإيمان وقد علم أنه سيكفر فإنه لا يؤمن أبداً الدهر اهـ .

(45) ذكر الشيخ عبد الله الحبشي في (الدليل القويم على الصراط المستقيم) ما نصه: قد ثبت علم الله وقدرته بالبرهان. ومن شرط العالم القادر أن يكون حياً فوضح وجوبُ الحياة له" اهـ .

(46) دليل السمع والبصر الآيات والأحاديث كقوله تعالى (و هو السميع البصير) و قوله صلى الله عليه وسلم في تعداد أسماء الله الحسنى (السميع البصير) وهو في حديث أخرجه الترمذى وحسنه . قال البيهقي في رد قول من يقول أن الله متكلم بمعنى خالق الكلام في غيره كالشجرة التي كان موسى عندها: "ولا يجوز أن يكون كلام المتكلم قائمًا بغيره ثم يكون هو به متكلماً مكلماً دون ذلك الغير. كما لا يجوز ذلك في العلم والسمع والبصر، وقال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بادئه ما يشاء) فلو كان كلام الله لا يوجد إلا مخلوقاً في شيء مخلوق لم يكن لاشتراط هذه الوجوه معنى لاستواء جميع الخلق في سمعه من غير الله ووجودهم ذلك عند الجهمية مخلوقاً في غير الله، وهذا يوجب إسقاط مرتبة النبيين صلوات الله عليهم أجمعين" اه .

(47) قال الإمام أبو حنيفة الذي هو من رؤوس السلف في الفقه الأبسط: ويتكلم لا كلامنا. نحن نتكلم بالآلات من المخارج والحرروف، والله متكلم بلا علة ولا حرف. فصفاته غير مخلوقة ولا محدثة، والتغير والاختلاف في الأحوال يحدث في المخلوقين. ومن قال أنها محدثة أو مخلوقة أو توقف فيها أو شك فيها فهو كافر" اه .

(48) قال الأشعري: "إن الله تعالى أسمعه الكلام القديم الذي ليس بحرف ولا صوت". وقال الغزالى: "إنه سمع الكلام الذاتي بلا صوت ولا حرف كما يرى ذاته بلاكم ولا كيف المؤمنون في الجنة". وقال أبو حنيفة رضي الله عنه في كتاب العالم والمتعلم: "وخصه بكلامه إيه حيث لم يجعل بينه وبين موسى رسولًا"، وقال أيضًا: "وسمع موسى كلام الله كما في قوله تعالى (وكلم الله موسى تكليمًا)" اه .

(49) قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر والوصية: "والقرعان كلام الله غير مخلوق، ووحيه وثزيله على رسول الله. وهو صفتة على التحقيق مكتوب في المصاحف، مفروع بالأسنة، محفوظ في الصدور غير حال فيها. والجبر والكافد والكتابة والقراءة مخلوقة لأنها أفعال العباد. فمن قال بأن كلام الله مخلوق فهو كافر بالله العظيم" اه .

(50) ومن أوضح دليل على أن القرعان بمعنى اللفظ المنزل غير كلام الله الذاتي قوله تعالى (يريدون أن يبدّلوا كلام الله) فإن الكلام هنا هو النظفي لأنهم لا يقصدون تبديل كلام الله الذي هو صفة ذاته، فإن صفة ذاته لا تتغير. فوضاح أن كلام الله له إطلاقان أحدهما النظف المنزل والثاني كلامه الذاتي الذي ليس حرفًا ولا صوتًا، بل أزلي أبدى لا هو عين ذاته ولا هو غيره إنتهي كلام الشيخ الحبشي .

(51) قال الزركشي في تشنيف المسامع: "وهو من لوازم القول بخلق الأفعال كلها. وهي مسنلة القضاء والقدر التي لا يتم الإيمان إلا به، أن يعتقد أن كل شيء من الطاعة والعصيان والنفع والضر بمشيئة الله خلافاً للمعتزلة فإنهم يعتقدون أن الأمر مستأنف بمشيئة العبد مستقل به من غير سبق قضاء وقدر . ولذلك قيل لهم القردية لأنهم نفوا القدر . وجاء في الحديث (القردية مجوس هذه الأمة) اه رواه ابن حبان وأبو داود وذكر الاسفارابيني في كتابه التبصیر في الدين أن "القردية ينقسمون إلى عشرين فرقة . وأن واصل بن عطاء الغزال وهو رأس المعتزلة وأول من دعا الخلق إلى بدعتهم وذلك أن معبداً الجنئي وغيلان الدمشقي كانوا يضمرون بدعة القردية ويخفيانها عن الناس" اه .

(52) ذكر العسقلاني في شرحه على البخاري ما نصه: "ومسنلة التكوين مشهورة بين المتكلمين، وأصلها أنهم اختلفوا هل هو صفة قيمة أو حادثة، فقال جمع من السلف منهم أبو حنيفة: "هو قديم" . وقال آخرون منهم ابن كلاب والأشعري: "هو حادث ثلا يلزم أن يكون المخلوق قديماً" وأجاب الأول بأنه يوجد في الأزل صفة الخلق ولا مخلوق. وأجاب الأشعري بأنه لا يكون خلق ولا مخلوق كما لا يكون ضرب ولا مظروف. فالزموه بحدوث صفات فيلزم حلول حوادث بالله، فأجاب بأن هذه الصفات لا تحدث في الذات شيئاً جديداً. فتعقبوه بأنه يلزم أن لا يسمى في الأزل خالقاً ولا رازقاً، وكلام الله قديم وقد ثبت فيه أنه الخالق الرازق. فانفصل بعض الأشعريه بأن إطلاق ذلك إنما هو بطريق المجاز وليس المراد بعدم التسمية عدمها بطريق الحقيقة. ولم يرتضى هذا بعضهم بل قال وهو المنقول عن الأشعري نفسه: أن الأسامي جارية مجرى الأعلام، والعلم ليس بحقيقة ولا مجاز في اللغة. وأما الشرع فلفظ الخالق الرازق صادق عليه تعالى في الحقيقة الشرعية. والبحث إنما هو فيها لا في الحقيقة اللغوية، فالزموه بتجويز إطلاق اسم الفاعل على من لم يقم به الفعل. فأجاب بأن الإطلاق هنا شرعي لا لغوی لغوي" اه .

(53) قال البخاري في باب ما جاء في تخلق السموات والأرض وغيرها من الخلق: "وهو فعلُ ربِّ تبارك وتعالى وأمره. فالرب بصفاته وفعله وأمره وهو الخالق هو المكون غير مخلوق. وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه فهو مفعولٍ مخلوقٍ" اهـ . وقال أبو حنيفة: "فالفعالية التخليق والإنشاء والإبداع والصنع وغير ذلك. والله تعالى لم ينزل خالقاً بتخليقه، والتخليق صفة في الأزل. وفاعلاً بفعله والفعل صفة في الأزل". فكان الله خالقاً قبل أن يخلق ورازقاً قبل أن يرزق. وفعله صفتة في الأزل، والفاعل هو الله غير مخلوق والمفعولٍ مخلوق" اهـ . وقال البخاري في كتابه [خلق أفعال العباد]: "اختلف الناس في الفاعل والفعل والمفعول. فقالت القدريّة: الأفعال كلها من البشر. وقالت الجبرية: الأفعال كلها من الله. وقالت الجهميّة: الفعل والمفعول واحد، لذلك قالوا: "مخلوق". وقال السلف: التخليق فعلُ الله، وأفأعيلنا مخلوقة، ففعلُ الله صفتة، والمفعولٍ من سواه من الخلقات" اهـ .

(54) وقال اللakanي في شرح السنة: "أخبرنا عبد الله بن عبيد ثنا أحمد بن سليمان ثنا جعفر بن محمد ومحمد بن إسماعيل قالا ثنا صفوان بن صالح ثنا عمرو بن شعيب قال سمعت الأوزاعي يقول: "إن أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن لكان نصراينياً فأسلم ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهنمي وأخذ غيلان عن معبد" اهـ .

(55) وهو أتباع جهم بن صفوان، ومع كل بدعيه كان يحمل السلاح ويخرج على السلطان وينصب القتال معه. ورافق سريح بن الحارث في وقائعه، وخرج على نصر بن سيار حتى قتله سلم بن أحوز المازني في آخر أيام المروانية. وأكثر أتباعه بنواحي ترمذ وأهل السنة والجماعة يكفرون بهم" اهـ . انظر التبصير للاسفرايني والفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي .

(56) ذكر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق أنهم عشرون فرقة منها ثلاثة زيدية، وفرقان الكيسانية، وخمس عشرة فرقة من الإمامية. فأما غالتهم الذين قالوا بإلهية الأئمة، وأباحوا محركات الشريعة وأسقطوا وجوب فرائض الشريعة كالبيانية والمغيرة والجناحية والمنصورية والخطابية والحلولية ومن جرى مجراهم مما هم من فرق الإسلام وإن كانوا منتبين إليه" اهـ .

(57) وذكر أهل التوارييخ أن الذين وضعوا دين الباطنية كانوا من أولاد المجروس وكان ميلهم إلى دين أسلافهم، ولكنهم لم يقدروا على أظهاره مخافة سيف المسلمين. انظر التبصير للاسفرايني .

(58) قال الفقيه محمد بن أحمد مياره المالكي في كتابه (الدر الثمين) ما نصه: "وانظر المسلم الذي ولد في الإسلام إذا اتفق له أنه لم ينطق بالشهادتين قط، فإن كان لعجز كالآخر فهو كمن نطق، وإن كان إباضةً وامتناعاً فهو كافر بلا شك، وإن كان لغفلة فقط فهل هو كمن امتنع فهو كافر قطعاً أو هو كمن نطق فهو مؤمن ونسب للجمهور قولان" اهـ . وقال النووي: "من صدق بقلبه ولم ينطق بلسانه فهو كافر مخلد في النار بالإجماع" اهـ . وقال محمد بن يوسف السنوسي: "وأما الكافر فذكره لهذه الكلمة واجب شرط في صحة إيمانه القلبي مع القدرة، وإن عجز عن ذكرها بعد حصول إيمانه القلبي لمفاجأة الموت ونحو ذلك سقط عنده الوجوب" اهـ .

(59) ورد في فضل كلمة الإخلاص ما رواه مالك في الموطأ والترمذى عنه صلى الله عليه وسلم (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وعند الترمذى زيادة (له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قادر). ويکفى في فضلها أن الكافر الأصلى إذا نطق بها انهدم جميع ذنبه، فقد روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمرو بن العاص لما أسلم (لم تعلم أن الإسلام يهدم ما قبله) وروى أحمد من حديث رفاعة الجهنمى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أشهد عند الله لا يموت عبد شهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله صدق من قلبه ثم يسدد إلا سلك في الجنة، وقد وعدنى ربي عز وجل أن يدخل من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، وإنى لأرجو أن لا يدخلوها حتى تتبوأوا أنتم ومن صلح من عابانكم وأزواحكم وذرياتكم مساكن في الجنة) قال الهيثمي رجاله موثقون .

(60) وقد قرر أهل المذاهب الأربع أن الآتين والتأوه يفسره الصلاة. (آهـ) من جملة ألفاظ الآتين وقد عدها الزبيدي في شرح القاموس اثنين وعشرين كلمة. وما يروى أن الآتين اسم من أسماء الله فلا أصل له. أخرجه الرافعى في

تاریخ قزوین بایسناد تالف و هو مناقض لقول الله في سورة الأعراف (ولله الأسماء الحسنى) فقد فسروا الحسنى بالدالة على الكمال فلا يجوز أن يكون اسم من أسماء الله تعالى دالاً على خلاف الكمال. انتهى كلام الشيخ عبد الله الحبشي في كتابه الدليل .

(61) يجتمع النبي والرسول في أن كلاً منها أوحى إليه بشرع. ويفترق الرسول عن النبي بأنه أوحى إليه بشرع جديد. والنبي يتبع شرع الرسول الذي قبله .

(62) أخرج ابن حبان من حديث أبي ذر أنه سأله رسول الله عن عدد الأنبياء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً) وأنه قال: كم الرسل منهم؟ فقال (ثلاثمائة وثلاثة عشر) وصححه، ولكن في سنته من هو مختلف في توثيقه. إنتهى كلام الشيخ عبد الله الحبشي في الدليل .

(63) إذ إن عند جمهور علماء التوحيد يشترطون للاحتجاج بالحديث في العقائد أن يكون الحديث مشهوراً وإن كان دون المتواتر .

(64) روى مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خلق الله الملائكة من نور) .

(65) روى البخاري ومسلم والدارقطني والبيهقي وغيرهم مجيء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر .

(66) قال الله تعالى (إلا إبليس كان من الجن فسق عن أمر ربه) .

(67) ثبت عن سعيد بن المسيب أنه قال إن الملائكة لا يتوادون ولا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون وأنهم ليسوا ذكوراً ولا إناثاً. نقله عنه الشيخ عبد الله الحبشي في دليله .

(68) رواه الترمذى وابن ماجه وأحمد والحاكم وحسنوه، ولفظ الترمذى (ساجد لله تعالى) .

(69) جاء في الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته التي هي ذات ستمائة جناح .

(70) قال الله تعالى: (وما كان ليبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء) .

ترجمة العلامة المحدث الشيخ محمد الحوت البيريوي

هو قدوة المحققين وعمدة المدققين وصدر العلماء العاملين والفضلاء الكاملين، بقية السلف الصالح الإمام المحدث الولي الكامل والتقي الفاضل الناسك الزاهد الورع العابد، صاحب المواهب الجليلة والمناقب الجليلة السيد أبو عبد الله محمد ابن السيد درويش ابن السيد محمد الحوت البيريوي مولداً الشافعى مذهباً العلوى نسباً (نسبة إلى سيدنا على رضي الله عنه) من عائلة تقوى وصلاح، ورهط فضل وفلاح .

مولده ونشاته

ولد في بيروت سنة تسع ومائتين وألف من الهجرة النبوية ونشأ في بيت والده السيد درويش، في بيت خرج لل المسلمين أكثر من عالم خدموا العلم والأمة. وما أن شب حتى انكب على الاعتراف من بحور العلم حفظ القرآن الكريم اتقاناً واستظهاراً وترتيلًا على الشيخ علي الفاخوري. ثم تولع في طلب العلم والفنون حفظ ألفية ابن مالك وحفظ كثيراً من المتون .

وبأثنائها حضر من الديار المصرية العالم الرباني الشيخ محمد المسيري الاسكندراني فلazمه وأخذ عنه علم التوحيد وشرح الخلاصة النحوية وغير ذلك. وقرأ على مفتى بيروت العالم الفاضل الشيخ عبد اللطيف فتح الله . ثم رحل إلى دمشق الشام تتميماً لمرغوبه ورغبة بإكمال مطلوبه فأخذ عن أجزاء علمائها الأعلام وكان أكثر تحصيله على عالمة عصره الشيخ عبد الرحمن الطبي الشهير بالشافعى الصغير ، وعلى مسند الديار الشامية الشيخ محمد الكزبرى، كما انه أدرك العلامة الكبير الشيخ عبد الرحمن الكزبرى وغيره من العلماء العاملين أمثال الشيخ صالح القراز والشيخ خليل الخشى والشيخ أحمد بببرس. كما انه قرأ على العلامة الشيخ محمد بن عابدين الحنفى صاحب الفتاوى المشهورة .

رجوعه إلى بيروت

ولما عاد إلى موطنها بيروت أشار عليه الشيخ علي الفاخوري أن يدرس في الجامع العمري الكبير رغبة بنفع الخاص والعام لما شاهد أن كثيراً من الأهالي ببحار جهله قد عام فأخذ يدرس في جوار مقام سيدنا النبي يحيى عليه السلام رجاءً منه بأن العلم بعد موته يحيا. غير أن ما كان جرى في ذلك الزمان بين مفتى بيروت والنائب من القيل والقال وسوء الأحوال كان من أعظم المصائب على الأهالي حتى أفضاه الأمر إلى ترك القراءة والتدريس معتزلاً في بيته حيناً من الزمن لم يكن عند قومه شيئاً مذكوراً إلى سنة ست وأربعين فإنها تغيرت الأحوال وهؤلاء الرجال، وعاد إلى التدريس فأشرقت شموس مواهبه ويزغت أنوار مناقبه وتتجزئ عيون علومه فأشفت العليل، وتدفقت ينابيع فنونه فأروت الغليل فشهد بفضلها الخاص والعام وأنعش قلوب الأنام بلفظ كالبحر الرازخ ووعظ كعقود الدر في نحور الحرائر .

تلاميذه

وقد تخرج على يديه أكثر علماء بيروت ومنهم الشيخ عبد الباسط أفندي الفاخوري مفتى ولاية بيروت وهو أكبر تلاميذه الإمام ، والأستاذ قاسم أبو الحسن الكستي والشيخ توفيق خالد والشيخ عمر الأنسى والسيد حسين أفندي بيه وغيرهم من أهل العلم والفضل .

مؤلفاته

له مؤلفات مفيدة ومصنفات فريدة في كافة العلوم والفنون وهي :

- 1- كتاب في أسماء رجال الإمام البخاري مرتب على حروف الهجاء .
- 2- ذكر رتبة الأحاديث التي جردها الإمام عبد الرحمن التميمي من البخاري .
- 3- كتاب في أخبار مأخذة من كتاب الإمام أبي حفص عمر الأندلسي المرسي وهو الكتاب المعروف بـ (حسن الأثر فيما فيه ضعف واختلاف من حديث وخبر وأثر) وهو في جملته مبني على أبواب الفقه، وليس في الكتاب شيء من ذاتيات الحوت، إلا طائفه من تعليقات أحسن فيها الإحسان كله. ذكره العانوتى في كتابه (الحركة الأدبية فى بلاد الشام)، والزرکلى فى الأعلام. وقد وجد هذا الكتاب مخطوطاً فى مكتبة الأزهر الشريف .
- 4- كتاب في ذكر أسماء الرجال الضعفاء والمتركون. وهو شرح لترجمات رجال البخاري. وقد ذكر المناسبة بين الترجمة والحديث اللذين طالما حارت فيما أفكار أولي الألباب وكلت في المطابقة بينهما أفلام جهابذة العلماء الأعلام. ذكره الغزوzi في كتابه (إتحاف ذوي العناية) وقد وجد هذا الكتاب الذي هو بخط المؤلف في مكتبة عبد الحي الكتاني تحت رقم 328 ك حديث، وقد ضمت للخزانة العامة بالرباط. وهذا من جملة الكتب التي حملها عبد الحي إلى بلاده .

5. كتاب في بيان الضعيف من أحاديث الجامع الصغير. وقد ذكر فيها الأحاديث الضعيفة المعللة بذكر الراوي المضعف أو المتروك أو الوضع أو المتهم بالوضع ورتبتها كالأصل على حروف الهجاء. وقد وجد هذا الكتاب الذي هو بخط المؤلف في دار الكتب المصرية تحت رقم 20357 ب، وقد فرغ من كتيبته في شهر رجب سنة 1266 هـ.

6. رسالة مشتملة على أخبار موضوعة.

7. كتاب يشتمل على أحاديث تتعلق بأحكام مختلفة في المعفوّات.

8. رسالة تحتوي على منثورات فقهية.

9. حاشية على شرح ابن حجر للأربعين النووية.

10. كتاب مطول في المعفوّات.

11. كتاب موجز في الميراث. (ولعل هذا الكتاب هو الحاشية التي وضعها الشيخ محمد الحوت على شرح الرحبيه لسبط المارداني، وقد وجد هذا الكتاب في مكتبة جمعية المقاصد الخيرية تحت رقم 109 ن، كتبت بخط الشيخ عمر الأنسى تلميذ المؤلف).

12. شرح بانت سعاد (مطول).

13. شرح بانت سعاد (موجز).

14. رسالة في أمر يزيد. (وقد وجدت هذه النسخة في أحد بيوتات ءالحوت).

15. رسالة في البيان. (ولعل هذا الكتاب هو الحاشية التي وضعها على كتاب مختصر المعاني والبيان للتفتازاني، وقد وجد هذا الكتاب في مكتبة جمعية المقاصد الخيرية تحت رقم 58).

16. رسالة في الإسناد والاشتقاق.

17. حاشية على شرح الأخضري للسلم.

18. كتاب يحتوي على بعض الكلمات العربية التي يحتاج إليها كل طالب علم لدورانها في الكلام.

19. رسالة في الحساب.

20. رسالة في علم الفلك. (وقد وجدت هذه الرسالة التي هي بخط الشيخ عمر الأنسى في مكتبة جمعية المقاصد الخيرية تحت رقم 109ن).

21. كتاب في تاريخ الصحابة.

22. كتاب في شرح بيتي الموصلي.

23. كتاب في التوحيد اسمه " الدرة الوضية في توحيد رب البرية". ذكره حالة في معجم المؤلفين 299:9 وفهرس الأزهرية 459:1.

24- رسالة بخلق الأفعال .

25- عقيده التي أملأها على تلميذه الشيخ عبد الباسط الفاخوري مفتى بيروت الأسبق ، وقد املأها عليه في جلسة واحدة .

26- كتاب الأحاديث المشتهرة المشهور على الأئمة الناس مما ينعت بالصحة حيناً وبالضعف أو الوضع حيناً آخر. وقد ذكر فيه الأحاديث التي ذكرها الشيخ عبد الرحمن بن الدبيع اليمني التي جردها من مختصر المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة على الأئمة السخاوي، فذكر رتبها وأقسامها واعتمد في ذلك على شرح الجامع الصغير للمناوي ورتبتها على حروف المعجم). وقد وجد هذا الكتاب الذي هو بخط المؤلف في دار الكتب المصرية تحت رقم 20361 ب وقد فرغ من كتابته في شهر جمادى الأولى سنة 1265 هـ، وبهامش الكتاب تقييدات كثيرة بخطه. وقد رتبه ترتيباً أبجدياً ولد الإمام العلامة الفضل أبو زيد عبد الرحمن الحوت وسماه "أسنی المطالب في أحاديث مختلفة المراتب".

27- كتاب الوضاعون وما وضعوا . وهو كتاب رتبه على حروف المعجم في كل حرف يذكر الأحاديث التي وضعها أولئك الوضاعون ففاق بذلك كل كتاب وضع في هذا الباب .

صفاته الخلقية

كان رضي الله عنه جاماً بين العلم والزهد وله اليد الطولى بتعليم العلوم الدينية، جليل القدر مسموع الكلمة يعزه أهل زمانه لعلمهم بتفوّاه وفضله. له مروءة تامة بعمل الخير والسعى فيه، يرحب الألفة بين العلوم متتصفاً بعلو الهمة ومكارم الأخلاق، يقول الحق ولا يخشى لومة لائم. وكان مكسيه من التجارة رغبة بالاستغناء عن الاحتياج للناس ومتقشفاً بملابسه اعراضاً عن زهرة الدنيا، كان شافعى المذهب صوفى المشرب.

كان ذا منطق عذب وحكمة بالغة، له لفظ أغلى من الدر إذا قال، وكان شديد التمسك بالسنة متولعاً بدراستها، ألى رأيته رأيت الخير والبركة والعلم والنور.

له نثر رائق وشعر فائق لم يُعثر إلا على اليسيير منه لأنّه كان مقلّاً من الشعر لاستغراق وقته في الوعظ والإرشاد وإلقاء الدروس الخاصة والعامة. له تشطير هذين البيتين المشهورين يقول :

ومن عجبِ أن الصوارم والقنا ... رحى كل حرب في الغلاة تدور
ولم أر من عيب بها غير أنها ... تحيس بأيدي القوم وهي ذكور
وأعجب من ذا أنها في أكفهم ... تميل لها الأرواح وهي تمور
كآل رسول الله أضحت سيفوفهم ... توجج ناراً والأكف بجور

وفاته

وفي ليلة الأربعاء لسبع ليالٍ خلت من شهر ذي الحجة الحرام من سنة ست وسبعين ومائتين وألف قضى نحبه بعد أن مرض برهة يسيرة .

وصلت عليه ظهراً في الجامع العمري الكبير ودفن بتربة البашورة في مشهد شهده الكبير والصغر والأمير والحقير . وقد قال تلميذه الشيخ عبد الباسط الفاخوري : " لم أنظر له نظيراً لما حواه من الجموع على اختلاف الملل وتبان النحل فكان ذلك دليلاً بيناً وبرهاناً ساطعاً على اعتبار العموم له ، واعترافهم بتقواه وفضله .

وخلصه القول أنه عاش كريماً ومات عظيماً فبكت عليه العلوم وأهلها وحزن لمصابه القريب والبعيد ورثاه جملة من أدباء عصره .

وقد نزل على الأمة بفقد هذا الإمام الجليل خطب عظيم ومصاب جسم . ققام شعراء عصره على منابر نعيه معددين عاثاره ومناقبه فقال العالم الفاضل والشاعر الشيخ قاسم افendi الكستي في رثاء شيخه :

أقيموا فروض الصبر واغتنموا الأجراء ... على حوت علم أبحر الدمع قد أجرى

هو المرشد الحبر المسمى محمدًا ... ومن هو بالعرفان من غيره أدرى

بمسراه ودعنا الفضائل كلها ... ونادي لسان الحال سبحانه من أسرى

ورثاه العالم العامل والجهيد الكامل الشيخ مصطفى أفدي نجا قال :

مضى حوت بحر العلم وهو محمد ... وبالفضل ما زالت له الناس تشهد

نعم هذه عاثاره وحديثها ... حديث صحيح طيب النشر مسنداً

هو العالم العالمة العلم الذي ... به لطريق الحق من ضل يُرشد

وقد رثاه أيضاً ناصيف اليازجي فقال :

قف فوق رابية ثجاه المسجد ... وقل السلام على ضريح محمد

واتل الفواحث فوق تربته التي ... حقت بأملاك تروح وتغبني

ما زال يسعى كل يوم باحثاً ... في يومه عما يحاسب في غد

علم من الأقطاب أصبح مفرداً ... في العالمين بفضله المتعدد

قد صح وضع الحوت في لقب له ... إذ خاض في بحر العلوم المزبد

صافي السريرة مخلص الله في ... عمل سليم القلب عذب المورد

متواضع فوق الكرامة كلما ... قامت علاه يقول للنفس اقعدني
لم تغره الدنيا فكان نصبيه ... نصب العبادة لا نصاب العسجد
حزن القريب عليه ملائعاً كما ... حزن بعيد على الحديث المسند
لم تبق عين في البلاد عليه ولم ... تدمع ولا شفة له لم تحمد
ببيروت نوحى في الأصانيل والضحى ... حزناً عليه ولا أقول تجلدي
قد غاب عنك وفيك بدر مشرق ... بدر التمام إزاءه كالفرقان
بدر يدور على العيون فتنجلي ... أبصارها وعلى القلوب فنهتدي
ما عيب قط بربية إذ لم ينزل ... طول الحياة لنفسه بالمرصد
يشكى إليه ليس منه فإنه ... عن كل سوء كان مكتوف اليد
يا أيها الميت الذي يبقى له ... في أرضنا ذكر ليوم الموعد
قد مُتَّ في الدنيا كأنك لم تمت ... والبعض مات كأنه لم يولِ
ومرقده الشريف في الجبانة العامة وهو مقصد للزوار، وبركاته الكثيرة كالشمس في رابعة النهار .

أولاده

أعقب عقباً صالحًا وذرية صالحة وهما :

العالم الفاضل الشيخ محمد أفندي .

والمحقق الكامل بقية السلف الصالح العامل على إقامة الشعائر وتشييد المساجد والمدارس وإحياء العلوم الشيخ عبد الرحمن نقيب السادة الأشراف في ولاية بيروت .

ولد في بيروت سنة 1846 وانتخب رئيساً لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، وله اليد الطولى في تعمير أغلب مساجد بيروت والأزهر. توفي سنة 1916 .

وكلاهما قد اقتفيا أثر والدهما ونهجا منهجه القويم بالعلم والعمل الصالح وفقنا الله لما فيه رضاه .

الترجمة من إعداد فضيلة الشيخ الدكتور كمال يوسف الحوت حفظه الله .